الأزهر

الإمام الشافعي

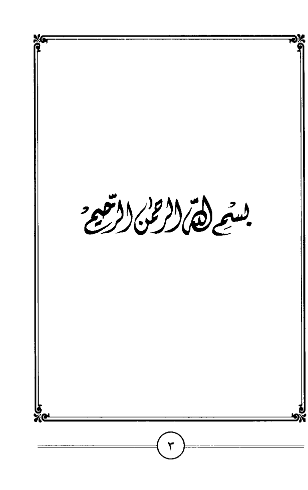
لفضيلة الشيخ
مصطفى عبد الرازق
شيخ الأزهر الأسبق

هدية مجلة الأزهر المجانية لعدد شهر جمادى الآخرة ١٤٢٣هـ



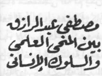
لفضيلة الشيخ / مصطفى عبد الرازق
شيخ الأزهر الأسبق




بسم الله الرحمن الرحيم







بقلم الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي

- ١ -

كان مصطفى عبدالرازق أول أستاذ للفلسفة الإسلامية بمصر، وكان من حظِّ هذه الفلسفة أن يكون شارحُها ودارسُها حكيماً بطبعه، فيلسوفاً بمسلكه، متمكِّناً من مادته تمكّناً يجعله صاحب رأى مسيطر ينفذ إلى اللباب فى قوَّة، ويؤكد الصحيح عن يقين، وينفى البهرج عن رسوخ.

ثم هو من وراء ذلك سَمح العبارة، لطيف المؤاخذة، هادىء النبرة، لا يقعقع فى جلبة، ولا يُكاثر بما يفتح الله به عليه من سَداد، بل تعصمه الحكمة العاقلة، عصمة مَن يقدر مكانته من

مادّته الدقيقة، فيعرف كيف يصبح موضع الرِّضا من ذوي النزاهة البريئة.

ولعلَّ أعجب شيء في حياة مصطفى أنه لم يكن موضع الرضا الصادق من ذوى النزاهة البريئة وحدهم، بل كان موضع الرِّضا من ذوى الغرض أيضاً، لأن سلوكه الرشيد فى الأخذ والردّ، والدّفع والجذب، كان موضع الدهشة لديهم، فما استطاعوا أن يُصاولوا إنساناً تدلّ صفحاته على التسامح الغافر، ومناقشاته على الترفّع المثالى فى غير ادِّعاء، لقد سيطر الرجل عليهم بحلمه النادر فسكتوا مبهورين.

قلت: إن الرجل كان فيلسوفاً بمسلكه وهذا حَقٌّ يعترف به كلُّ من اتصل به من زملاء وطُلاَّب.

والفلسفة، هى حبّ الحكمة كما نعلم، ولن تكون الحكمة فى غير الاعتصام بالفضائل الخلقيّة، والتمسّك بالمحامد النفسيّة.

إن فلاسفة الأخلاق يُطيلون الحديث عن السلوك الإنسانى المنشود لذوى المثل، ولكن أكثرهم يعرف القول ولا يعرف العمل، أما مصطفى فقد كان بسلوكه المثالى صورة موضحة لفضائل النفس الإنسانية، فقرّب بذلك حقائق هذه الفضائل تقريباً مشهوداً، بحيث أصبح وجوده تطبيقاً عمليّاً لما خاض فيه فلاسفة الشرق والغرب من معانٍ هادفةٍ فى مضمار السلوك الإنسانى، وقطع بذلك كل طريقٍ على مَن يعتقدون أن المثالية أملٌ

منشود لا حقٌّ واقع.

وهل تغيب المثالية عن قوم يَرَوْن أستاذاً من أعْرق الأسر، يتقلَّدُ أرفع المناصب، ثم هو ينتفض واقفاً أمام امرأة مسكينة تفدُ إليه فى مكتبه بوزارة الأوقاف طالبةً عون المحتاج! ينتفض واقفاً، ليسمع الشكاة فى ألم، ثم لا يجلس حتى يصدر الأمر بالإنفاذ، ويطرق مفكّراً فيقول له جليسه: قد فعلت ما أملاه عليك واجبُك، ففيمَ التفكير؟ فيبتسمُ الشيخ فى مرارة، ويقول: كم لها من أمثال عجزْن أن يأتين هذا المكان، لهنّ الله!.

أذكر أنى كتبت بمجلة الثقافة(١) مقالاً، يلمّ ببعض مواقفه النبيلة، مستشهداً بروائع فذّة، تكمِّل ما نبحث عن تمامه من جوانب العظمة النفسية لدى المثاليِّين، ولن أعيد هنا ما قلت، حيث نويت أن أقْصر هذا البحث على التعريف العلمى بآثار مصطفى عبدالرازق، التى كان لها مكان الريادة القائدة فى عالم الفكر الأصيل، فإذا تحدّثت عن شذورٍ من حياته العملية فلكى أرسم الإطار المحدَّد لما أُريد من حديث الفكر الخالص، فتظهر الصورة الصادقة فى إطارها الطبيعى فى يُسْر قريب.

نشأ مصطفى فى بيت علم وجاه، إذ كان جدّه من كبار قُضاة الشرع فى عصره، وله ذيوعٌ ممتد بالعلم والكرم، أما

---

(١) الثقافة ، عدد مايو، سنة ١٩٧٩م

والده فقد تعلَّم بالأزهر، ودرس كتبه، ثم اتصل بالسياسة عَلَماً ذا رأى مسموع فى مجالس النيابة، ومواقف السياسة، وقد شارك الشيخ محمد عبده فى مواقف كثيرة، فانعقدت بين الرجلين أواصر الصداقة، ونشأ مصطفى، فاتَّجه به والده إلى الدراسة الدينية، وجعلَ ينظر فيمَن يتصدرون للعلم بالأزهر وخارجه، فلا يجدُ أنْبه من الأستاذ الإمام ذكراً، ولا أكثر منه تأثيراً ونفاذاً.

ثم أُتيحَ له أن يشاهده عن عيانٍ حين كان يزورُ أباه، وأن يستمع إلى حواره متحدِّثاً فى العلم، ومناقشاً فى السياسة، وأن يقرأ مقالاته فى الصحف، وآراءه فى الكتب، وأن يجلس إلى بعض دروس التفسير فى الرِّواق العباسى، ليجدَ فى دروس الإمام غير ما يعهدُ فى دروس سواه.

أُتيح له ذلك كله، فذهب الشيخ محمد عبده بإعجابه فى كل مَنْحىً من مناحيه، واتقدت فى نفسه رغبة فى الكتابة الأدبية، والخطابة التوجيهية، فأنشأ مع إخوته صحيفةً منزلية قام على تحريرها الطالب الأزهرى الناشىء، واشترك مع أخيه على فى طباعة النُّسخ على أوراق الكربون، وفى توزيعها على أفراد العائلة، وانتقل من هذا الحيِّز الضيِّق سريعاً إلى ميدانٍ فسيح، حين اتَّصل بالجرائد اليوميَّة كاتباً قبل أن يبْلُغ سنَّ العشرين، ثم سَمَت به همَّتهُ إلى أن يُفصح عن ذاتِ صدره إلى الأستاذ الإمام.

ومَن يعرفُ حياءَ مصطفى، وشدّة حَساسيَّته يقدِّرُ شجاعته الأدبيَّة حين خطَّ كتاباً إلى أستاذه يحدِّثه عن حيرته البالغة، إذ يجدُ نقصاً في وسائل التعليم الأزهري لعهده، وانكماشاً مع أساتذة الأزهر عن معالجة شؤون الحياة، وتراجُعاً في البلاد الإسلامية عن اتِّباع منهج الإسلام، ممَّا أوقعه في أسىً بالغ لا يعرف السبيل إلى الخلاص منه.

وقد وقع خطاب مصطفى من الأستاذ الإمام موقعاً ساراً بهيجاً، فكتب الردَّ بنفسه، وقال فيما كتب: «ماسُررتُ بشيءٍ سروري أنَّك شعرت في حداثتك بما لم يشعرْ به الكبارُ من قومك، فلله أنت، ولله أبوك، ولو أُذِنَ لوالد أن يقابل وَجْهَ ولده بالثَّناء لسُقتُ إليك من المديح ما يملأ عليك الفضاءَ، ولكنني أكتفي بالإخلاص في الدعاء لك، أن يُمتعني الله في نهايتك بما تفرَّسته في بدايتك».

ولم يكتفِ المصلح الكبير بالرَّدِّ التحريري، بل سأل عنه في زيارة خاصة به كانت موضع ارتياح الوالد الكبير، واستمع الأستاذ إلى تلميذه مقدِّراً موجِّهاً.

ومجلسٌ تربويٌّ كمجلس الإمام من تلميذه، لا بُدَّ أن ينفخ فيه من روح اليقظة ما يُشعِل في صدره جذوات الإصلاح، ويدفعه دفعاً إلى أدواته الأولى من اكتمال التثقيف، وعُمق الدراسة، وتفهُّم روح العصر، وهذا ما كان عن واقع ملموس ظهرت

بوادره الناهضـة فى تفـوّق مـصطفى العلمى، وفى مـواصلة الكتابة الصحفية، بل إن روح الإمام، قد أذكتْ فى نفسه بواعث الشعر، فاتجه إلى مديحه بقصيدة طويلة قال فيها:

أقـبـلْ عليك تحـيَّــة وسـلامُ يا سـاهراً والمسلمـون نيـام
إنْ يقدروا فى الغرب قدرك حقه فلمصـر أولى منهمُو والشام
كـالبـدر أنَّى سـار يشـرق نوره والحقُّ أنَّى حلَّ فـهـو إمـام
ذيـك الرجـاء لأمَّـة لعـبت بما يُلهى الصغار، وجدّت الأيام

ولم يشأ الحظُّ أن يمتّع الناشىء كثيراً بحياة أُستاذه، حيث فوجىء بانتقـاله إلى رحمـة ربّه، فـأذكت الحسـرة قلبه، ورثاه بقصيدة حارَّة، تُنبىءُ عن شاعريَّة رائعة لم تجد سبيلها فيما بعد، فـأخذت تترقـرق فيمـا أبدع مـصطفى من خـواطر أدبيَّة تحدّثنا عنها فى غير هذا المجال، هذه الحسرةُ التى صـدقت بواعثها المشجية فى نفس صاحبها، فتفجَّرت عن معانٍ صادقة لا يلمُّ بها غيـرُ من كـان ذا قلب حـافظ، وعمل وا عٍ، وودٍّ بالغ الإخلاص، وحزن لافح الفجيعة مما دفعه أن يقول:

يا دفين القلوب قـد هـابك الدهر فكيف اعـتـدى عليك الحـمـام
كنت طوداً إذا الخطوب ادلهمّت لم تنلْ همَّك الخطوب الجسـام
كنت حيَّ الفـؤاد تصـدع بالحق فـــتلوّى عنانهـــا الأوهام
رجلٌ كـان حين يسلك فـجّـاً تتـحــامَى طريقــه الأيام
إنْ قلبـاً أصـفـاك بالودِّ حـيّـاً صـــدَّعـــتـه بموتك الآلام

وأكبر من الرثاء الشعرى، وأبعد منه أثراً فى الحياة أن يعيش مصطفى ما بقى من عمره متحدّثاً عن آراء أستاذه، ومؤرّخاً أدواره الإصلاحية، ،وشارحاً نضاله السياسى والتربوى، ومترجماً آثاره العلمية.

وإذا كان السيد محمد رشيد رضا قد بلغ فى هذا المضمار مالا مزيد عليه فى الشّرق، فإن مصطفى بترجمته ما اختارَ من آثار الإمام العلمية إلى الفرنسية قد انتقل بثمار الإمام إلى أرض جديدة، حين قدّم صورة صحيحة للعقيدة الإسلامية كما كتبها إمامٌ كبير، فأعطت الوجه الحقيقى لملامح الإسلام فى وقت كثرتْ فيه المفتريات المغرضة، وتنوّعت الأباطيل.

نعرف أنّ الإمام محمد عبده لم يَلْقَ غير المعارضة الصارمة من الرسميِّين فى الأزهر، ولكنَّ بذرة الإصلاح التى غرسها فى مصر، قد نَمَتْ وترعرعتْ بعد وفاته بجهود تلاميذ كبار عشقوا مبادئه، واتَّخذوهُ قدوةً وإماماً.

وكان مصطفى أحد الذين رأوا فى إحياء تعاليم الإمام واجباً إسلامياً تفرضه الغيرة الدينيَّة، وقد سافر إلى فرنسا واتصل بأئمة الفكر فى أوروبا، وحادث كبارَ الرؤُوس من أعلام الأدب والفلسفة والتربية، فما وجدَ فى هؤلاء مَن يملأ مكان **أستاذه من قلبه، ثم رجع إلى مصر ليجد الحرب العالمية الأولى قد ألهبت**

النّاس عن مبادئ الإمام، وليرى أسماءً تملأ الصُّحُف وتشغلُ الأذهان لا يرتقى أصحابها إلى مستوى أستاذه، فرأى أنْ يحاضر وأن يؤلّف فى حركة الإصلاح الدينى التى ملأت حياة شيخه، وأن يجعلَ منها شاغلاً للمفكرين، لأن رحيله ورحيل الطبقة المغرضة من مُعارضِيه، قد مهّد للآذان المحايدة أن تسمع كلمة الحق.

وإذا كانت مجلّة المنار قد تكفّلتْ بشرح آراء الإمام، فإنّ منحى صاحبها فى التفكير على سداده يغايرُ منحى مصطفى، فالسيد محمد رشيد رضا صاحبُ مجلّة، وله خصومٌ ومنافسون، وفيهم علماءُ يصاولونه بلسانٍ صارم، فيضطر إلى منازلتهم بسلاحهم.

وقد تعدّدتِ الجولات دون تركيز، فرأى مصطفى أن يعمد إلى لبِّ الإصلاح فى منهج أستاذه، ليعرضه أمام الناس بعيداً عن حومات الصراع، وقد عرف الناس له فى ذلك أثرين خطيرين، كتب أحدهما تحت عنوان: (الشيخ محمد عبده ووجهته فى الإصلاح الدينى) وقد حصره فى مقالات خمس، تتحدّثُ عن أدوار الإمام فى الإصلاح، فنقل من أقواله ما يحدّد هدفه الإصلاحى حين دعا إلى التوفيق بين العقل والشرع، وتابع الشيخ فى أدواره المتوالية منذ كان طالباً فى الأزهر يكتبُ

المقالاتِ فى الأهرام حتى أصبح مُفتياً للديار المصرية.

وإذا كان جمال الدين الأفغانى ذا أثرٍ بارزٍ فى حياة الأستاذ الإمام، فقد تحدّث عن مواضع الوفاقِ والخلاف فى اتجاه المصلحيْن الكبيرَيْن، ونقل من آراء الإمام، فى ردّه على المسيو هانوتو، وفيما كتبه فى مؤلّفه عن الإسلام والنصرانية ما يوضح تصوُّره الدينى تمام التوضيح، مبيِّناً تفاؤلَ الإمام بمستقبل الإسلام، هذا التفاؤُل الذى اعتمد على أصول راسخة فى الأساس الإسلامىّ قراناً وسُنَّةً، تشريعاً ومنهجاً، ومن هذه الأصول تحرير الفكر من التقليد، لأن النظر العقلى هو أساس الإيمان الصحيح المقرون بطمأنينة النفس واستقلال الإرادة، وقد نقل عن الإمام قوله فى هذا المجال: «إنه لا يقين مع التحرّج من النظر، إنما يكون اليقين بإطلاق النظر فى الأكوان، طولها وعرضها، حتى نصل إلى الغاية دون تقييد».

أما الأصلُ الثانى فاعتبارُ الدّين، من موازين العقل، وعدّه صديقاً للعلم، إذْ لا سبيلَ للعداوة بينهما، لأنَّ الدين باعثٌ على العرفان، ومُطالب باحترام الدليل والبرهان، حاثٌ على دوام النظر والتأمّل، وتلك سبيل العلم، فأين يوجد الاختلاف؟.

ويوجز الأستاذ الأصل الثالث فى فهم الدين على طريقة السلّف قبل ظهور الخلاف، والرجوع فى كسب معارفه إلى

ينابيعها الأولى، إذ تجبُ تنقية الفكر الإسلامى مما علق به من الشوائب، دون التقيّد بنصوصٍ لا تثبت للنقاش، وفيما شرحه الأستاذ من آيات القرآن ما يرسم التطبيق العملى لما يدعو إليه من هذا الفهم الخالص من القيود، وقد اتّسع المجالُ أمام مصطفى للحديث عن منهج الأستاذ فى تفسير كتاب الله، وكلّ ما قاله دقيقٌ صائب، وقد أعاد نشر هذه المقالات فى خاتمة كتابه عن «الإمام الشافعى» بعد أن جمعها من جريدة السياسة، إذ كانت مجال النشر المبدئى لهذه الآراء.

ونلحظ أن مصطفى عبدالرازق كرّر الحديث فى مقالاته الكثيرة عن مؤاخاة الدِّين للعقل، متأثراً بما أكّده الإمام، وهذا التكرّر المتواصل ردٌّ مُلِحٌّ على جماعة من المفكّرين طابَ لهم أن يعلنوا أن للدين منطقةً لا يتعدّاها وهى منطقة القلْب، وللعلم منطقةً أُخرى هى منطقة العقل، ومحاولة فهم الدين والعلم معاً فى غير مجاليهما هذين، ممّا تضرّ الدين، إذ تقفُ به أمامَ سدود ناهضة لا يستطيع اجتيازها، وهذا فكرٌ أُوروبى أراد الخلوص من معضلات عسيرة الحلّ، ولكنّ قوماً من المسلمين رأوا أن ينقلوه إلى الشرق دون داعٍ، فالإسلام دين واضح العقيدة سهل الفهم، تنادى آياتُ كتابه بالنظر العقلى، ولكلّ رأى دليلهُ الواضح، وبرهانه الشّاهد، فلماذا نلبسه بغيره، ونقرنهُ

بسواه؟

إنَّ إلحاح الأستاذ مصطفى عبدالرازق على تكرار هذه الناحية نتيجةٌ محتومة لردّ ما يَسمعُ من أوهام يردّدها بعض الناس على غير هدى وبصيرة، وفيهم مَن لا نشكّ فى نيّاته، ولكنّه أخطأ الطريق.

ونتحدّث عن الأثر الثانى عن الإمام من مؤلّفات تلميذه، وهو محاضرات ألقاها بالجامعة الشعبيّة، وجمعها - بعدُ - فى كتاب خاصّ يضمّ سيرة الإمام فى حيّز لطيف، لا يمتدّ به الاستطراد إلى مجاهل شاسعة، والتلميذُ الحصيف خيرُ مَن يتحدّثُ عن أستاذه الرائد، لأن أخلاق محمد عبده وعبقريته وسلوكه السياسيّ، وبصيرته النافذة إلى أدقّ المنعرجات، تحتاجُ إلى تناولٍ هادىء ذكيّ من إنسان عصرى نشأ نشأة الإمام العلميّة، وأدرك ما كابد من مرهقات، وعرف جوهر ما يدعو إليه من الإصلاح، وخالط من زملاء الإمام وحوارِيّيه ومُنافسيه مَنْ أعانوهُ على استجلاء الغوامض فى اطمئنان.

وقد وقف الكاتبُ على حقائق تربوية ساقها فى سمت هادىء، وهى مما يدعو أعلام الثقافة التعليميَّة إلى مُعاودتها الدراسة كأن يقول:

«وعندى أنَّ قراءته -الصبى الصغير- القرآن وحده، حفظْته

من العيوب الكثيرة للتعليم فى الكتاتيب، إذ سلّم الأستاذ فى مدة تعلّمه الأولى من التشويش الضارّ، بعقله وبنيته، ومن القسوة التى تخمد نزعاته إلى الحرية والنشاط».

وأن يقول: «تلقّى الشيخ محمد عبده -بادىء أمره- العلومَ عن صفوة علماء عصره على الطريقة الأزهرية التى تصبغُ العلوم بصبغة دينيَّة تجعلُها مقرَّرةً، كل عمل العقل فيها أن يحفظها، ويحفظ أدلّتها المقررة، أو يحفظ شواهدها».

ولسنا فى مجال التحليل لأمثال هذين الشاهدين، ولكننا نجزمُ أن أثر البيئة المثقفة التى أوجدها جمال الدين الأفغانى كانت الملهم الأول للنابغة الناهض، وهذا ما أوضحه الأستاذ فى كتابه، إذ تعرّض إلى شتّى مواقف الإمام العملية صحافةً وسياسةً ومنصباً وعراكاً، وكان من تواضع مصطفى أن يقول فى مقدمة كتابه عن أُستاذه:

«نشأ الشيخ محمد عبده كما ننشأ نحن الفلاحين حُفاة عارى الرؤوس، نجرى فى الأزقّة، ونسبحُ فى البرَك والتّرع، ونلعبُ بالتراب والأحجار، لا يُعنى أحد بتلقيننا فى طفولتنا شيئاً من مبادىء الفهم والذّوق، ولكننا ننبت كالنبات البرّى، يتغذّى مما يصل إليه من مواد الغذاء، ويُثمر شوكه وأزهاره، ولا يربّى فى أنفسنا إلاّ الشعور بتهيّب الوالدين، وإجلالهما

واحتذاء أمثالهما».

فإذا كان الشيخ محمد عبده قد نشأ هذه النشأة حقاً، فإن مصطفى نَجْل حسن باشا عبدالرازق لم ينشأ كذلك، ولكن تواضعَه الحبيب جعله يعتدّ نفسه جزءاً من أبناء الأزهريين الفقراء، الذين نشأُوا حُفاة عُراة الرؤوس!.

وأدلُّ في باب التواضع موقفه من السيد رشيد رضا، فنحن نعلمُ أنّ الأستاذ مصطفى عبدالرازق لم يترك الحديث عن جهاد الإمام تأليفاً ومحاضرةً وتدريساً طيلة حياته، وقد شاء قومٌ من أعداء السيد رشيد أن يسلبوه فضل الترجمة للإمام والتفسير العلمي لآرائه، وأن يذهبوا بهذا الفضل إلى مصطفى عبدالرازق، لخلوصه من النفع المادّي الذى ألصقوه ظلماً بصاحب المنار، ولو كان الأستاذ مصطفى عبدالرازق ضعيف الخلق لآثرَ السكوت على أمرٍ لايَدَ له في إثارته، وهو يضيف إليه فضلاً كبيراً حين ينزل بمقام سواه، ولكنَّ صاحب الخُلُق المثاليّ، يدفع ما يُقال في قوة حين ينتهزُ فرصةً مُتاحة فيقول عن الشيخ رشيد رضا من خطابٍ وجّهه إلى تلميذه الأستاذ الدكتور عثمان أمين (١):

---

(١) رائد الفكر المصرى محمد عبده، للدكتور عثمان أمين، ص١٦.

«أول مَن ترجم للشيخ محمد عبده، وعُنِيَ بنشر آثاره، هو السيد محمد رشيد رضا، صاحب المنار، والسيد رشيد رضا هو أول مَن لقّب الشيخ محمد عبده بالأستاذ الإمام، وهذا اللقب نفسه يُنبيءُ بالصورة التى أراد أن يرسمها السيد رشيد لشيخه فيما كتبه عنه، ويُنبيءُ بالفكرة السائدة فى وجهة نظر التلميذ إلى أستاذه.

الشيخ محمد عبده عند السيد رشيد رضا إمامٌ من أئمة الإسلام، له فى الدين مذهبٌ يقوم أصحابه على روايته وتدوينه، كما قام أصحاب أبى حنيفة والشافعى وغيرهما على ما لأولئك الأئمّة من مذاهب.

إذا كان الشيخ محمد عبده إماماً فى الدين، فالسيد رشيد رضا لا شك صاحبه ومفسّر مذهبه ومكَمِّله وقد بذل مُنشىءُ المنار مجهوداً ضخماً فى هذه الناحية، حافلاً بالمباحث الدينية والمناقشات الفقهية، كان له أثر غير ضئيل فى توجيه الدراسات الشرعية فى بلاد الإسلام المختلفة».

كانت فرنسا قِبلَة المبعوثين من صفوة شباب مصر فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن، وكان منهم مَن بهرته الأضواءُ فانخدع عن دينه و تقاليده بما شاهد من خوادع فاتنة، وفيهم مَن كان صلب العقيدة قوى الشكيمة، كعبد الحميد سعيد، وحسن عاصم، وقاسم أمين، ومصطفى كامل، فجابه كل تَحَدٍّ بالمنطق، وهاجم أعداء الإسلام فى صُحُف باريس.

وقد ذهب مصطفى عبدالرازق شاباً فى رزانة الشيخ، وطالباً فى حكمة أُستاذ، فَبَدت دلائل فضله، واختير للتدريس بإحدى الجامعات فكان طالباً ومُدَرّساً فى وقت واحد، وطبيعى أن يلتفّ به ذوو الخديعة من أنصار الإلحاد، وأن يفسحوا مجال الأسئلة والاعتراض، ومعهم كتب الطبيعيين ودُعاة الإباحيين، تعاضدها نظريات متطرّفة لرجال علوم النفس والاجتماع، وأصحاب نظرية التطوّر، مما عُدّ فى ذلك العصر فتحاً جديداً للعلم، وتفسيراً ملموساً لظواهر الحياة.

كان هؤلاء جميعاً -غربيين ومستغربين- يجادلون مصطفى، ويناقشونه فى أدقّ المسائل، فيجدون من هدوء الفيلسوف، ورزانة الحليم، وأناة العاقل الصابر ما يقف بهم موقف الدهشة، لأن النهج السقراطى فى الحوار الهادىء المستفهم فى غير ضجة، والمجيب فى غير تعالٍ، هذا النهج المتواضع الرقيق كان

طبعاً لا تطبّعاً فى خلق مصطفى فكان يترك محاوره ليبسط شكوكه الغالية، وهو يستمع إليها فى ابتسام ويُظهر من دلائل الارتياح ما يعتقد به مُحاوره أنه قد مَلَكَ عليه عقله، وأن ليس فى مكنته غير التسليم، فإذا ما انتهى من حديثه أخذ مصطفى يسأل فى لباقة، فيضطر صاحبه أن يُجيب؟

وتتوالى الأسئلة فى أدب حتى يشعر المجادل أن آراءه قد تزعزعت، وهذا مسلك ندعو أصحاب الجدل أن يأخذوا به، لأن التشنّج الصاخب فى النقاش، والفرقعة المدوّية فى الأخذ والردّ، مما يُضعِف الحجّة، ويُظهر صاحبها فى موطن الضعف، وقديماً قال الجاحظ: إذا تناظر رجلان فانظر إلى أعلاهما صوتاً، وأكثرهما ضجيجاً لتعرف أنه الواهم.

ونضرب مثلاً -لبعض هذا النقاش الجادّ- ليكون أنموذجاً حيّاً للمتناظرين :

قال مصطفى عبدالرازق ملخصا قول بعض مناقشيه حين تباحثا فى بعض مسائل العقيدة:

«إن الإيمان بالله قد وصل عندى إلى حدّ الإذعان، وأما الرُسُل فما أراهم إلاّ رجالاً من صفوة أممهم وهبوا أنفساً كبيرةً، وعقولاً راجحةً، فعملوا على إسعاد الناس وتقريبهم من الخير، ووضعوا لذلك قوانين هُدُوا إليها كما يهتدى الحكماءُ إلى

وضع قواعد لإصلاح المجتمع الإنسانى، ولما رسخ فى يقينهم أن ما وصلت عقولهم الصافية إليه هو الحق، قالوا: إنه من الله وسمّوه وحياً، وكأنما قولهم هذا من باب ثقة العالِم بعلمه، ولكنه لا يجعل آراءهم بنجوة من تمحيص العقول، ولا يمنحهم الثقة فوق ما يكون لإخوانهم من الحكماء المصلحين».

هذا هو الرأى الذى جُوبِه به مصطفى، فماذا كان موقفه منه على خطورة مرماه؟ لندع الأستاذ الأكبر يتحدَّث عن نفسه، فيقول:

سمعت قوله كله بإصغاء تامّ، ولم أقطع عليه الطريق فى حديثه، ولا أظهرت له إنكاراً، ولم يُيئسنى عدوله عمّا أعتقده الحق من عدوله إليه، ذلك أنه يتكلم برَوِيّة، ومَن كان هكذا عظم الرجاء فيه.

أخذت أولاً فى اختبار إيمانه بالله لأذهب به من طريق الترتيب الطبيعى وحده، فوجدته لا يخالف فى شىءٍ يتعلّق بربّه، فانتقلت إلى أمر الآخرة، فقال : إنه فى شكٍّ منها ولم يُعْطِها حظّه من النظر فقلت فى صراحة هادئة: إن الإيمان بالحياة الأخرى يجب أن يكون موضع بحثك قبل أن تصل إلى بحث «الرُّسُل والرسالة» لأن الفطرة تقضى أن ينال المحسن ثواب إحسانه، وأن يُسأل المسىءُ عن إساءته، ومَن أيقن بالله وآمن

بحكمته لا بدّ أن يُوقن أنه لم يخلق الناس سُدىً :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾(١).

قال صاحبي: لا بدّ لى من أن أُفكّر فى ذلك فدع اليوم الآخر، وتحدّث معى فى أمر الرسالة والمرسلين.

قلت فى هدوء: إذا كـان لا بدّ من حـسـاب وسـؤال وجـزاء وعقاب، فلا بدّ من رسول يهدى البشر، قال صاحبى: هو العقل، فقلت : إن كثيراً من تعاليم الرّسل لا يستقلّ العقل بها، وقد جاءَ كل رسول بمعجزة تؤيّد قوله، والعقول تختلف، فلا بدّ من رسول يحسم الاختلاف.

هنا قد ملّكَ مصطفى مقطع الرأى، ولكنه قال فى تواضع: لقد نازعنى صاحبى ونازعته ثم سكت وسكتّ فتركته لنفسه، يعرض الأدلة ويراجعها، ووددت أن يبادر شبابنا بطلب اليقين إذا تلجلج فى صـدورهم الشك، فـذلك أحـرى أن يقـتلع الشُّـبُـهـات قـبل رسوخها(٢).

لا أجد ما أُعلّق به على هذا الحوار، غير أن أعدّ من التوفيق الإلهى أن يكون مـصطفى عـبـدالرازق أول أُسـتـاذ للفلسـفـة

(١) المؤمنون ١١٥.

(٢) مجلة الرسالة، العدد الممتاز ٢٤٦، سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨م.

الإسلامية فى الجامعة المصرية، لأن الجامعة حين أُنشئت كانت تحتاج إلى مثله، فبعض أساتذتها من الغربيين والمستغربين كانوا يدأبون على زعزعة القواعد الأصلية من أُسس الإيمان.

والفلسفة ذات خطر إذا قام على تدريسها مَن لا يمسّ الإيمان شغاف قلبه، وفيهم -للأسف- مَن يجد الإلحاد مظهراً من مظاهر الرقىّ الفكرى، ويعمد إلى شذور من أقوال الطبيعيين يملأ بها فكّيه متعالياً، وكأنه خاضَ بحاراً ذات عمق غائر، ليأتى بما يتعذّر الحصول عليه من أصفى اللآلىء والدّرر، وقد أشاع هؤلاء بلبلة فكرية، كان مصطفى وبعض زملائه خارج الجامعة وداخلها ممّن عاونوا على تبديدها.

ونجزم بأن التكوين الخلقى للأستاذ الأكبر كان عامل جذب قوى لكل مَن عاشره، واختلط به فى المحيط الجامعى، أو المجتمع العامّ، إذ انفرد بين الأساتذة بطابع مؤْنس ذى بشاشة وإقبال، حتى كان كلّ مَن يعرفه يعتقد أن بينه وبين الأستاذ واشجة خاصّة.

ولعلّ ندوته العلمية التى كانت تنعقد فى منزل والده الكبير بعابدين، ما كان لها أن تستمر أكثر من ربع قرن إلاّ بمؤانسة إنسان عظيم الشمائل كمصطفى، إذ كان يَفِد إلى هذه الندوة أُناس ذوو ثقافات وطبائع مختلفة، فمنهم المحافظ العريق،

والمجدِّد المتطلّع، والمؤمن والشاكّ، ومَن اقتصر على ثقافة الشرق، ومَن اتجه وجهة الثقافة الأوروبية، ومَن يجمع بين الثقافتين، ولكلّ هؤلاء من مصطفى بشاشة وارتياح، فكأنه قد عرفهم جميعاً وعذر المخالف، وأيّد الموافق، ولاقى المتشدّد بالسّماح، والعابس بالبشاشة، وذلك سلوك قد اضطره إلى كظم المواجد، حتى أصبح ذلك الكظم سمَة خاصّة به أحسن الأستاذ العقّاد تحليلها، ضارباً عدّة أمثلة لها من حياته (١).

وطبيعى أن يكون هذا السلوك ديدنه فى البيئة الجامعية، وهى لعهده كانت أحفل بالمتناقضات وأجمع للغرائب، فبعض الأساتذة من أوروبا على اختلاف دولها يُزاملون نفراً من أساتذة مصر، وبعض الطلاب من مصر، وبعضهم من الدول العربية الشقيقة، ومن الدول الشرقية الصديقة، ولجميع هؤلاء لدى مصطفى احتفاء وتقدير، كما أنهم يُجمعون على إكباره، ويترسمون خُطاه لو يستطيعون، ونترك لأحد تلاميذه الأستاذ الدكتور عثمان أمين أن يتحدّث عن سموّه الخلقى كما لمسه طلابه فى كلية الآداب فيقول:

«كان أُستاذنا يعتقد أن هناك شيئاً فوق العلم وفوق الفن، وهذا الشيءُ هو ما يطلق عليه اسم الأخلاق، وقد كان الفلاسفة

(١) مجلة الكاتب، مقال العقّاد عن مصطفى عبدالرازق، إبريل، سنة ١٩٤٧م.

الرّواقيّون يسمّونه فنّ الحياة، وهو أعلى الفنون، لأن موضوعه هو الجمال بمعناه الصحيح، أى جمال الروح، وكان يرى أن الأخلاق ينبغى أن تكون فناً للحياة، أى أن ترسم قاعدة ثابتة لسلوك الشخص مع نفسه، وبإزاء الله والناس، بمعنى أن يكون للإنسان فى حياته موقف مقرّر، وخطة مرسومة، حتى لا تتجاذبه الأهواءُ والانفعالات، فإذا بلغ الإنسان هذه المرتبة كان حكيماً، وآية الحكمة هى ما يلازم سلوك الإنسان من ثبات واستقرار.

وكان أستاذنا يقول: إن بناء المجتمع يجب أن يقوم على الأريحية والإيثار، أى على الشعور بأنّا جميعاً أسرة واحدة متصافية متآزرة متعاطفة، وإن علاج الأمراض الاجتماعية يتطلّب إصلاحاً أخلاقياً يكفل الانسجام والائتلاف بين طبقات الأمة، ويوجّه النفوس إلى الخير المفطور فيها، فتتخلص القلوب من أدران الحقد والأنانية(١).

وإذا كان مصطفى لم يؤلّف كتاباً يرسم منحاه الخلقى، فقد كانت حياته كتاباً واقعياً عملياً للخلق المنشور، وكم ترك علماءُ الأخلاق من مؤلّفات، ولكن أحدها لا يبلغ منزلة حياة نبيلة لإنسان مثالى حاول التطبيق بنفسه، بعد أن شاعت القاعدة

(١) رائد الفكر المصرى محمد عبده، للدكتور عثمان أمين، ص٢٦١.

شيوعاً مكروراً، إذ لا يُمارى أحد فى نفاسة الاتجاه المثالى، ولكن البلوغ إليه شأو بعيد.

قلت -فيما سبق- إن من حظّ الفلسفة الإسلامية أن يكون مصطفى أول أستاذ لها بالجامعة وأُعيد ذلك لأؤكد أن أستاذ الفلسفة الإسلامية الحقيقى لا بدّ أن يدرس العلوم الإسلامية دراسةً هاضمة، ليصل إلى الحقائق العلمية فى نفاذ شفّاف تدعمه الأصالة الراسخة، ويمدّه البحث المتواصل، إذ إننا رأينا بعض مَن تصدّوا لأستاذية الفلسفة الإسلامية، بعد مصطفى قد باعدوا ما بينهم وبين دراسة العلوم الإسلامية واكتفوا بما قرؤوه عن أساتذة الاستشراق، بل إن فيهم مَن لم يتمكن من دراسة علَم إسلامى واحد فى مراجعه الأولى لدى أئمته السابقين.

وقد كتبوا عن الفلسفة الإسلامية فملأوا الصفحات بأوهام المستشرقين، تلك التى تصدّى مصطفى عبدالرازق لدَحضها فى كتابه الرائع (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) وعنوانه يحمل من التواضع ما لا يَفِى بقدره، فليسَ الكتابُ تمهيداً فحسب، ولكنه جاوز التمهيد إلى الأبواب الأصيلة فى الفلسفة.

ونفعُ هذا الكتاب لا يقف عند طلاب الفلسفة الإسلامية وحدهم، بل يمتد إلى طلاب الفقه والتوحيد والتصوّف، إذ رأى

مصطفى أنّ هذه العلوم ذات أُسس أصيلة من أساس الفلسفة الإسلامية الحقيقية، وهى مما تثبتُ أصالة هذه الفلسفة واستقلالها عن الفلسفة اليونانيّة إذ دأب كثيرٌ من الكاتبين على النهج الغربى أن يصمُوا الفلسفة الإسلامية بأنها نَقْلٌ مشوّهٌ لفلسفة اليونان، وكان كبيرُ هؤلاء الفيلسوف الفرنسى (أرنست رينان) حيث أكّد فى كتابه (تاريخ الأديان) وفى كتابه (مقالات ومحاضرات) أن الفلسفة الإسلامية ما هى إلاّ فلسفةٌ يونانية مخطوطةٌ بحروف عربية لم يهضمها العربُ، لأن الإسلام دينٌ لا يسمح بحريّة التفكير [كذا!!]

وأن هذه الفلسفة لا تتّفق ومبادىء الإسلام الجامدة! وإذا كان ابن رشد، قد ترجم هذه الفلسفة فقد شوّهها ومسخها، لأنه لا يعرف كيف يكتب، ولا كيف يفكّر، وأن لغته لغة همجيّة!!. ومؤلّفاته لا قيمة لها!!»وقد وجد (رينان) مَن يردّ عليه من أبناء جنسه، ويُريه موضع الشّطط فى حكمه، ولكن المصريين فى فرنسا لحينه قد جابهُوهُ وفنّدوا أقواله، ولعلّنا نذكر بالخير حسن عاصم طالب الحقوق بباريس، إذ نازل الفيلسوف فى باريس قدر ما يستطيع طالبٌ مصرى ناشىءٌ يدرس الحقوق بالسوربون!.

أمّا مناظرةُ جمال الدين الأفغانى للفيلسوف المشتطّ، فقد

كانت ذات وزن راجح إذ وضعت الحق فى نصابه، وألجأت الفيلسوف إلى أن يتنازل مضطراً عن بعض آرائه أمام منطق الأفغانى الدقيق!

وقد ألمّ مصطفى فى الصفحات الأولى من كتابه بموقف رينان وشيعته، كما نشرَ الصفحة المقابلة لمعارضيه، وفَصلَ فى القضية بما يثبتُ بالبرهان الحقيقى أصالة الفلسفة الإسلامية، لأنها لا تقف عند نظريات اليونان التى امتلأ بها ابن سينا، وابن رشد، والفارابى وأضرابهم، بل تظهر بوضوح فى أصول الفقه الإسلامى، وفى علم الكلام، وفى حقيقة التصوّف لدى المسلمين.

ولتفصيل ذلك كتبَ الأستاذ أقوى الفصول فى بيان التطوّر التدريجىّ للفقه الإسلامى، فعالج هذا الموضوع معالجةً أصيلةً فاقت ما سبقها من الدراسات على نفاسة كلّ ما كتب! إذ كتب - رحمه الله - دراسةً مفصّلة لمصادر التشريع الإسلامىّ، متحدّثاً عن مراحل نموّه مرحلةً مرحلة، وشارحاً تفصيلَ وجوه الاتفاق ووجوه الخلاف بين المذاهب الأربعة الذائعة، ثم تحدّثَ عن علْم الكلام فى ضميمةٍ موجزة، ولكنها تحتاجُ إلى شروح ضافية، وكان فى نيّة المؤلّف أن يفيض فيها لولا أنه تركَ المجال الجامعى إلى الوزارة مُجبَراً غير مختار.

وأذكر أن الأستاذ أحمد أمين قد عالج هذين العلمين في كتابه ضُحى الإسلام، إذ تحدّث في الجزء الثاني عن تطوّر التشريع، وفي الجزء الثالث عن نشأة علم الكلام بفروعه، وقد قرأ مصطفى كلامَ صديقه أحمد أمين ونقل عنه فيما نقل، وكان كلام أحمد أمين أكثر إيضاحاً وأنصع بياناً، لاختلاف المنهج التأليفي لدى الرجلين، إذ إنّ مصطفى يحترمُ النصوص المأثورة ويفيض في النقل عنها إفاضةً تكاد تخفي رأيه الشخصي في بعض المواقف! لا عن قصور في أداة البيان، فإن مقالاته الأدبيّة في كُتبه الأخرى ترتفع به عن مستوى أحمد أمين البياني، ولكن لأن اتجاهه التأليفي قد أوحى إليه أن يُكثر من النصوص ليقرّبها من أذهان طلّابه، وليدفعهم إلى مراجعة الأصول الأولى في صبر بعد أن صُرِفوا عنها مدفوعين بما يسمعونه من استهجان متعمّد لآثار السابقين!.

وكان ذلك ديدن مصطفى في كلّ ما بحثه من فروع العلم في كتبه الذائعة عن الوحي والدين والإسلام، وعن فلاسفة العرب، والحقّ أن الفصل الواحد ممّا كتبه مصطفى عن الفارابي أو الكندي أو ابن تيمية يصلح أن يكون وحدَه مادّةً لكتاب مستقل، لأنّ أفكار الفصل الواحد من الدسامة والإيجاز بحيث تتشقّق عن أفكار كثيرة يحسّها مَن كان ذا صلة بالبحث العلمي!.

وقد تحدّث عن نشأة الفقه الإسلامى مرةً أخرى فى صورة موجزة نجدُها فى كتابه عن الإمام الشافعى، وهو كتاب نافع على اختصاره، وقد ضمّ إليه ترجمة دقيقة لليث بن سعد!.

وآثار مصطفى العلمية جميعها يحتاج إلى دراسةٍ متأنّية، لأنها دائماً تعمدُ إلى اللباب الخالص من قضايا العلم والفلسفة أو تجمع شتّى الأنظار المتقابلة شرقاً وغرباً لتميّز الخبيث من الطيب فى هدوء أمين، يُدهشك أن ترى فيه روحاً من التسامح تكاد تحتضن الرأى المخالف احتضاناً، مع أنها زيّفتْه وكشفتْ عن عواره، لأن خلق الفيلسوف عند مصطفى قد أجبرهُ على أن يقدّر اجتهاد مخالفه، وأن يأخذ فى اعتباره ما أضاع من وقت، وما بذل من جهد فى النقد والتمحيص مهما وصلتْ به الحقائق إلى غير مطمئنها الصحيح.

وحين تولّى -رحمه الله- مشيخة الأزهر ألقى عدّة محاضرات دينية لم يتخلَّ فيها عن منهجه العلمي، فكانت وجوه الاختلاف بين محاضراته ومحاضرات سلفه الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى واضحة، لأن المراغى -رحمه الله- كان يهيّىء خطابه للعامّة والخاصّة معاً، فكان وضوح الأسلوب، واستيفاءُ العرض، وجمال التعبير من أدواته البالغة فى التأثير، حتى أصبحت أحاديثه الدينية مهوى الأسماع.

ولكن دروس الأستاذ مصطفى عبدالرازق فى تفسيره للفاتحة وسورة الإخلاص، ومقدّمة سورة الفتح، وهى مما ألقاه فى احتفالاتٍ جامعة بالجامع الأزهر اقتداءً بسُنّة سلفه، كانت هذه الدروس لا تُرضى غير الخاصّة وحدهم، لأن المفسّر الجامعيّ كان يذكر نصوص المفسّرين الكبار من أمثال الطبرى والزمخشرى والفخر الرازى والإمام محمد عبده ليوازن بينها فى اعتدال، وليرجّح أحدها فى هدوءٍ، وهذا النمط العلمى الدقيق لا يجد ارتياح السامعين، وأكثرهم من المسؤولين الذين لم يتخصّصوا فى مناحى التفسير، ولم يألفُوا ميدان الترجيح العلمى، والنقض البرهانى! ولكن ذوى الدُّربة من الفاقهين قد وجدوا فى دروس مصطفى غذاءً دسماً يحتاجُ إلى معدة قوية تستطيع هضمه فى غير عناءٍ، وإذ ذاك يستحيل عاملِ قوة، وباحث نشاط وحيوية، هما منتهى آمال الباحثين.

وما ألقاه الأستاذ الأكبر من دروس جامعة فى المساجد قد سجّل بمجلّة الأزهر، وعليه اعتمدت فى هذا النظر السريع.

على أن أمد مشيخته فى الأزهر الشريف لم يطل، وكان الرجل الكبير ذا استعداد حافل للنهوض العلمى، إذ بدأ فأعدّ اللجان، وهيّأ المقترحات، وبدأ فى التنفيذ، فحالَ الأجل دون الأمل.

وأذكر أنه أعدّ لائحةً لتنظيم مجلة الأزهر، ووجدتْ تنفيذها العملى منذ المجلّد الثامن عشر سنة ١٣٦٦هـ حين جعل الشيخُ الأكبرُ من أهداف المجلّة نشر البحوث المؤيّدة لعقائد الإسلام وشرائعه، المبطلة لشُبُهات الإلحاد، واتّباع الأسس السليمة فى مناهج البحث فى العلوم الإسلامية بخاصّة، وفى الآداب والعلوم والفنون والاجتماع بعامّة، مع نشر الكتب المتّصلة بالإسلام فيما يُنشر بمختلف اللغات، والردّ على ما يتطلّب الردّ، وكذلك نشر المباحث الهامّة فى مذاهب الإصلاح الدينى والاجتماعى، وتزويد القرّاء بأخبار الكليّات والمعاهد الأزهرية، والبعثات العلمية شرقاً وغرباً(١) وقد سارت المجلّة على نمطها شوطاً حميداً، وطالعت القرّاء بالجديد المفيد حينئذ.

ولن أجد فى ختام هذا البحث أوفى من حديث صديقه الكاتب المبين الأستاذ أحمد حسن الزيّات فى وصفه وسَرْد تاريخ بيته حيث قال:

«ساهم (بيت الأستاذ) فى جهاد الدستور والحرية بالنفس والمال، ثم عفّ عن الغنيمة، وشارك فى ثقافة العقل والروح ثمّ عزف عن الشُّهرة، وتهافتت من حوله بيوت المجد على الأضواء الغربية الخادعة، فأضلّ بعضها العشاء، وأحرق بعضها اللهيب،

(١) مجلة الأزهر المجلد الثامن عشر، ص٩٤، المحرّم، سنة ١٣٦٦هـ.

وبقى هو على شرقيته ومصريته، تضوع فى أبهائه نفحة الإسلام، وتهشّ على موائده أريحية العروبة، وتخفق فى جوانبه روح مصر.

والشيخ مصطفى يلخّص فى شمائله أمجاد هذا البيت، فهو سرّ وراثته، وعطر أرومته، وجملة ماضيه، فإذا جلست إليه فى الفة أو كلفة غمرك منه شعاع لطيف يملك نفسك من غير سطوة، ويبسط شعورك من غير خفّة، ثم تحسّ فى تواضعه سموّ الكبرياء، وفى دواعيه أنفة العزّة، وفى بساطته جلالة النبل، فلا تستطيع أن تردّ هذه الخلال فيه إلى الحدّ الذى تواضع الناس عليه فى تعريف الخلق، إنما تنتهى إلى أن شخصيته الجذّابة واحدة الطراز لما تهيّأ لها من أصالة المنبت، وزكاوة العرق، وسعَة الثقافة، وسلامة الفطرة، وجمال القدوة».

هذا بعض ما قاله الزيّات، وفيه روعة وبلاغ.

الشافعى واضع أصول علم الفقه

الشافعى هو أحد الأئمة الأربعة الفقهاء: أبى حنيفة النعمان ابن ثابت الكوفى المتوفى سنة «١٥٠هـ - ٧٦٧م»، وأبى عبد الله مالك بن أنس الأصبحى المدنى المتوفى سنة «١٧٩هـ - ٧٩٥م»، وأبى عبد الله محمد بن إدريس الشافعى المكى المتوفى سنة «٢٠٤هـ - ٨٢٠م»، وأبى عبد الله أحمد بن حنبل البغدادى المتوفى سنة «٢٤١هـ - ٨٥٥م».

وهؤلاء الأئمة الذين استقرت مذاهبهم فى الفقه الإسلامى بين جمهور المسلمين منذ نحو ألف عام، وتلاشى ما عداها من المذاهب كمذهب «الحسن البصرى» المتوفى سنة «١٦١هـ - ٧٧٧م»، ومذهب «سفيان الثورى» المتوفى سنة «١٦١هـ - ٧٧٧م»، ومذهب «عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعى» المتوفى سنة «٢٤٠هـ - ٨٥٤م» ومذهب «محمد بن جرير الطبرى» المتوفى سنة «٣١٠هـ - ٩٢٢م».

وطالت مدة المذهب الظاهرى الذى أسسه «داود بن على الأصفهانى» المتوفى سنة «٢٧٠هـ - ٨٨٣م» وزاحم المذاهب الأربعة، ودرس بعد القرن الثامن.

والتنافس بين المذاهب الأربعة على الغلبة والانتشار والسلطان قديم يرجع إلى عهودها الأولى، ولعل بعض آثاره لا تزال باقية إلى اليوم.

ولئن كان هذا التنافس قد أدى فى بعض الأحايين إلى إثارة أحقاد وفتن بين العامة، فإنه فى أكثر أمره كان سبب حياة عقلية، ونشاط فكرى، وتسابق إلى الإتقان والكمال فى البحث العلمى.

فإن أهل كل مذهب كانوا لا يفتأون يتفننون فى جعل مذهبهم ميسراً لأفهام الناس وأذواقهم، متسعا لما يتجدد من حاجتهم، متميزا بلطف الاستنباط وحسن التخريج، وكثرة الجمع للمسائل، وجودة التأليف، حتى أصبحت علوم الأحكام الشرعية أكمل مظهر للمجهود العقلى العظيم فى الإسلام بوفرة أبحاثها ومؤلفاتها التى لا يحصى عديدها، وبما فى كثير من هذه المؤلفات والأبحاث من ابتكار وإبداع.

لا جرم كان التراث الفقهى الإسلامى من أنفس ما ادخر البشر من مباحث المتفقهين.

ولا نزاع فى أن لأشخاص واضعى المذاهب أثرا فى رواج مذاهبهم وإقبال الناس عليها، وتغلبها على ما عداها.

وقلما تمتاز عند الجمهور مقالات المفكرين عن صورهم وأشخاصهم (١).

---

(١) نقل ابن حجر عن زكريا الساجى، أنه سمع هارون بن سعيد الأيلى يقول: ما رأيت مثل الشافعى، قدم علينا مصر فقيل قدم رجل من قريش فجئناه وهو يصلى فما رأينا أحسن صلاة منه ولا أحسن وجها، فلما تكلم ما رأينا أحسن كلاما منه، فافتتنا به. ص٩٥ وأخرج الآبرى من طريق الربيع قال: لما قدم الشافعى مصر وقعد فى مجلسه كان يجالسه رؤساء أصحاب الخلق: عبدالله بن عبدالله بن عبدالحكم ونظراؤه، وكان الشافعى حسن الوجه والخلق، فحبب إلى أهل مصر من الفقهاء والنبلاء والأعيان. ص٦٢.

ومن أجل هذا كان من وسائل أهل المذاهب الأربعة لنشر مذاهبهم والدعوة لها: وضع المصنفات فى مناقب الأئمة أصحاب هذه المذاهب، وفى الترجمة لحياتهم على وجه يبرز فضائلهم، ويبين مزايا مذاهبهم.

وقد تفرد الأئمة الأربعة بكثرة ما دون من المؤلفات فى تراجمهم حتى ليقول «أبو زكريا النواوى» المتوفى سنة «٦٧٦ هـ - ١٢٧٧م» فى شرحه للمهذب المسمى بالمجموع: «وقد أكثر العلماء من المصنفات فى مناقب الشافعى - رحمه الله - وأحواله من المتقدمين كداود الظاهرى وآخرين، ومن المتأخرين كالبيهقى وخلائق لا يحصون».

ويقول أبو حفص عمر بن أبى الحسن الشافعى المعروف بابن الملقن فى كتابه «العقد المذهب فى تاريخ المذهب» المؤلف فى القرن الثامن الهجرى: «وترجمة الشافعى حذفناها فى هذا المؤلف لأنها أفردت تأليفا فبلغت نحو أربعين مؤلفا».

على أن كثرة هذه المؤلفات وإن وفرت للمؤرخ مراجع البحث فإنها تقوم فى الغالب على العصبية لإمام على إمام، فلا تخلو من سرف فى المدح وسرف فى الذم، وجدل فيما ينسب لهذا من المناقب وما ينسب لهذا من الهنات، ولا تخلو من اعتماد على روايات ظاهرة البطلان، وعلى الأحلام والرؤى.

ومن أمثلة ذلك: ماورد فى مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة

النعمان لمحمد بن محمد بن شهاب المعروف بابن البزاز الكردى صاحب الفتاوى البزازية المتوفى سنة «٨٢٨هـ - ١٤٢٣م» من عقد فصل لصفة الإمام فى التوراة.

وقلما تجد كتابا فى مناقب الأئمة إلا وفيه باب لما رأى الإمام المترجم له فى المنام وما رئى له.

نعم لكل ذلك وزنه ودلالته فى نظر الباحث، لكن التقصى لهذه المقالات فى مصادرها، والمقارنة بين رواياتها المختلفة، واعتبار حجج المثبتين لها والمزيفين - مما لايدخل فى غرضنا ولا يتسع له المقام.

غرضنا من هذا البحث أن ندرس ما يتعلق بأثر الشافعى فى تكوين العلم الإسلامى.

ولما كان وصف الأثر العلمى للإمام يستدعى تصوير شخصيته التى صدر عنها هذا الأثر، فإنى أجعل هذا البحث قسمين:

أ- ما يتعلق بالشافعى فى خاصة نفسه من نشأته وسيرته.

ب- ما يتعلق بأثر الشافعى فى وضع علم «أصول الفقه».

وأتناولها على هذا الترتيب.

نشأة الشافعي وسيرته

يقول أبو عمر يوسف بن عبد البر النمر المالكي المتوفى سنة ٤٦٣هـ في كتابه «الانتقاء» في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء: مالك، والشافعي، وأبي حنيفة - رضى الله عنهم»: لا خلاف علمته بين أهل العلم والمعرفة بأيام الناس من أهل السير والعلم بالخبر والمعرفة بأنساب قريش وغيرها من العرب، وأهل الحديث والفقه، أن الفقيه الشافعي - رضى الله عنه - وهو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة. ويجتمع مع النبي ﷺ في عبد مناف بن قصي، والنبي ﷺ «محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف».

والشافعي محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، وإلى شافع ينسب، وقد تقدم أنه شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي.

فالنبي ﷺ هاشمي، والشافعي مطلبي، وهاشم والمطلب أخوان ابنا عبد مناف، ولعبد مناف أربعة بنون: هاشم والمطلب ونوفل وعبد شمس - (ص٦٦). وهذا الذي لم يكن يعرف فيه

ابن عبد البر خلافا من نسب الشافعي قد حدث فيه الخلاف.

قال فخر الدين محمد بن عمر الرازى المتوفى سنة ٦٠٦هـ - ١٢٠٩م فى كتابه فى مناقب الإمام الشافعي:

«وطعن الجرجانى، وهو واحد من فقهاء الحنفية، فى هذا النسب، وقال: إن أصحاب مالك لا يسلمون أن نسب الشافعي - رضى الله تعالى عنه - من قريش، بل يزعمون أن شافعا كان مولى لأبى لهب فطلب من عمر أن يجعله من موالى قريش فامتنع، فطلب من عثمان ذلك ففعل، فعلى هذا التقدير يكون الشافعي - رضى الله تعالى عنه - من الموالى لا من قريش». ص٥.

وعرض الرازى للرد على هذه الدعوى بما لانرى حاجة للإطالة فيه، مادام صاحب الطعن يعزوه إلى أصحاب مالك، وقد نقلنا عن إمام من أئمة المالكية ما ينقض هذه الدعوى التى يقول فى أمرها الرازى: «واعلم أن الجرجانى إنما أقدم على هذا البهتان لأن الناس اتفقوا على أن أبا حنيفة كان من الموالى، إلا أنهم اختلفوا فى أنه كان موالى العتاقة أو من موالى الحلف والنصرة، وطال كلامهم فى هذا الباب. وأراد أن يقابل ذلك بمثل هذا البهت، وما مثله فيه إلا كما قال الله تعالى:

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾(١).

(١) التوبة (٣٢)

وقد يكون أصل هذه الحكاية ما ذكره الخطيب البغدادى فى ترجمته للشافعى، من أنّ أم شافع أم ولد.

فالشافعى من جهة أبيه قرشىّ مطلبىّ، ليس فى ذلك نزاع يقام له وزن، وإن كانت أم جده ليست من العرب.

وقد ذكر الكثيرون ممن ترجم للشافعى: أن جده السائب أسلم يوم بدر، وكان صاحب راية بنى هاشم مع المشركين، فأسر ففدى نفسه وأسلم. وروى أنه اشتكى فقال عمر: اذهبوا بنا نعود السائب بن عبيد فإنه من قريش. وقال النبى صلى الله عليه وسلم حين أتى به وبعمه العباس: «هذا أخى».

أما ابنه شافع فلقى النبى وهو مترعرع.

فالسائب بن عبيد صحابى، وابنه شافع صحابى، وأخوه عبد الله بن السائب والى مكة صحابى.

وروى ابن حجر العسقلانى الشافعى المتوفى سنة «٨٥٢هـ ١٤٤٨م» فى كتابه «الإصابة فى تمييز الصحابة» عندالكلام على عبد يزيد بن هاشم بن المطلب، روايات قال على أثرها:

«وعلى هذا فيكون فى النسب أربعة أنفس فى نسق من الصحابة: عبد يزيد، وولده عبيد، وولده السائب بن عبيد، وولده شافع بن السائب». ج٨ص١٩٣.

ويظهر أن بيت الشافعى كان بيت حكم وعلم فى مكة. فقد رأينا أن عبد الله بن السائب أخا شافع بن السائب كان واليا لمكة.

وقال ابن حجر العسقلاني في كتابه «توالي التأسيس بمعالي ابن إدريس»: «وأما عثمان بن شافع فعاش إلى خلافة أبي العباس السفاح. وله ذكر في قصة بني المطلب لما أراد السفاح إخراجهم من الخمس وإفراده لبني هاشم، فقام عثمان في ذلك حتى رده على ما كان عليه في زمن النبي ﷺ ص٤٥.

وذكر ابن عبد البر، فيمن أخذ عن الشافعي علمه من أهل مكة، أبا إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن العباس بن عثمان بن شافع، قال: «وهو ابن عمه، وروى أيضاً عن ابن عيينة وغيره، وكان ثقة حافظا للحديث ولم ينتشر عنه كبير شيء في الفقه، وكان منشؤه بمكة، وتوفي بها سنة سبع وثلاثين ومائتين، وحدث عن جماعة». ص١٠٤.

ولسنا نعرف من أمر إدريس والد الشافعي إلا أنه كان رجلا حجازيا قليل ذات اليد، وأنه خرج مهاجرا من المدينة حين ظهر فيها بعض ما يكرهه، أو خرج من مكة إلى الشام لحاجة، في رواية أخرى، وأقام بغزة أو بعسقلان من بلاد فلسطين، ثم مات بعد مولد الشافعي بقليل.

أما أم الشافعي فهي أزدية في أرجح الروايات، وهي الرواية المشهورة المعزوة إلى الإمام نفسه. وذكر بعض المؤرخين أن كنيتها «أم حبيبة الأزدية».

ونقل بعض أصحاب التراجم أن أم الشافعي هي فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

وقيل: فاطمة بنت عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي .

وقالوا: إنهم لا يعلمون هاشميا ولدته هاشمية إلا علي بن أبي طالب والشافعي.

ورجح هذا القول ابن السبكي في كتاب «طبقات الشافعية الكبرى».

لكن الفخر الرازي يرى: أن هذا القول شاذ. ويقول ابن حجر العسقلاني: إنه لم يثبت، ويرده كلام الشافعي نفسه. قال ابن السبكي: «ولله درها، من أي قبيلة كانت!».

قال ابن حجر: «ومن ظريف ما يحكى عن أم الشافعي من الحذق أنها شهدت عند قاضي مكة هي وأخرى مع رجل، فأراد القاضي أن يفرق بين المرأتين، فقالت له أم الشافعي: ليس لك ذلك؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول:

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ﴾(1).

---

(1) البقرة (282)

فرجع القاضى لها فى ذلك. وهذا تفريع غريب واستنباط قوى».

ولو أن أم الشافعى كانت بهذه المثابة من دقة التفريع وقوة الاستنباط لعرف التاريخ على الأقل اسمها، وعرف أين وافاها حمامها وفى أى زمن[1].

هذه السيدة التى يختلفون فى نسبها ويختلفون فى اسمها هى التى كفلت طفلها يتيما غريبا فقيرا، ولم تزل ترعاه بعنايتها وتتولاَّه بهدْيها حتى أصبح بين المسلمين إماماً.

خرج إدريس بن العباس والد الشافعى من مكة مهاجرا، يفر من الظلم، أو يفر من الفقر، أو يفر من كليهما، وقد يكون فى طريقه إلى فلسطين أقام فى المدينة زمنا، فقال بعض الرواة: إن هجرته كانت من المدينة ثم نزل فى غزة أو فى عسقلان - وهما ثغران من ثغور فلسطين متجاوران، وعسقلان هى المدينة - وأقام هناك مع زوجه التى وضعت له طفلا ذكرا لم يكد يتنسم الحياة حتى أدرك الموت أباه.

هذا مولد الشافعى، ولا خلاف بين الرواة فى أن الشافعى ولد «سنة ١٥٠هـ» وهى السنة التى مات فيها أبو حنيفة على

---

(١) فى كتاب «الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة» تأليف شمس الدين محمد بن الزيات: «ويقولون (عن قبر من القبور) به أم الإمام الشافعى وليس بصحيح فإنها بمكة. قال المؤلف عفا الله عنه: دفنت فاطمة أم الإمام الشافعى بمكة. وهو الأصح».

الصحيح، كما ذكرابن حجر وغيره (١).

والمروى عن الشافعى: أنه قال: إنه حمل إلى مكة وهو ابن سنتين، من غزة إلى عسقلان.

وفى كتاب «معجم الأدباء» لياقوت: «وفى رواية أن الشافعى قال: ولدت باليمن فخافت أمى علىَّ الضيعة، فحملتنى إلى مكة وأنا يومئذ ابن عشر أو شبيه ذلك. وتأويل بعضهم قوله «باليمن» بأرض أهلها وسكانها قبائل اليمن، وبلاد غزة وعسقلان كلها من قبائل اليمن وبطونها.

قلت: وهذا عندى تأويل حسن إن صحت الرواية، وإلا فلا شك أنه ولد بغزة وانتقل إلى عسقلان إلى أن ترعرع». ج٦ص٣٦٨.

ويقول ابن حجر فى «توالى التأسيس» ص٤٩: «والذى يجمع الأقوال أنه ولد بغزة عسقلان، ولما بلغ سنتين حولته أمه إلى الحجاز ودخلت به إلى قومها وهم من أهل اليمن، لأنها كانت أزدية، فنزلت عندهم، فلما بلغ عشرا خافت على نسبه الشريف أن يُنسَى ويضيع فحوَّلته إلى مكة».

وليس من رأيى التوفيق بين الروايات المتضاربة قويِّها وضعيفها على هذا الوجه، فتلك طريقة ليست من التمحيص

---

(١) وفى كتاب مراة الجنان وعبرة اليقظان لأبى محمد عبدالله بن أسعد بن على بن سليمان عفيف الدين اليافعى الشافعى اليمنى ثم المكى المتوفى سنة ٧٦٨ هـ.

«وقلت: وبيننا وبين الحنفية مقاولة على سبيل المزاح، فهم يقولون: إمامكم كان مخفيا حتى ذهب إمامنا، ونحن نقول لما ظهر إمامنا هرب إمامكم». ج٢. ص٢٥. وهكذا يمزح المتفقهون.

التاريخي في شيء، بل يجب تخير الروايات الصحيحة السند، التي يرجحها ما يحفّ بها من القرائن. والذي تدل عليه الروايات الراجحة أن الشافعي ولد بغزة ومات فيها أبوه كما مات بها من قبل هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم، ثم حملته أمه إلى عسقلان وهي من غزة على فرسخين أو أقل. وكان يرابط بها المسلمون لحراسة الثغر منها. وكان يقال لها: «عروس الشام». وفي كتاب «أحسن التقاسيم» للمقدسي المعروف بالبشاري: «أن خيرها دافق، والعيش بها رافق».

وكل هذه الاعتبارات جديرة بأن تجعل الأيِّم الفقيرة تختارها سكنا لها ولطفلها اليتيم الغريب.

فلما بلغ الطفل سنتين وترعرع وأصبح يحتمل السفر حملته أمه إلى مكة؛ لينشأ بين قومه من قريش، ولعلها كانت تريد أن تستعين على تكاليف العيش بما ينال الطفل من سهم ذوي القربى، باعتباره مطلبيا (١).

على أن حظ الطفل من خمس الغنائم لم يكن ليرفِّه من عيشه فنشأ في قلة من العيش، وضيق حال. قال الرازي:

---

(١) ويظهر أن أم الشافعي كانت ترى أن تنشئه على الاعتزاز بنسبه والشعور بقوميته، وقد نشأ الشافعي غير خلو من هذه النزعة حتى لقد اتهم بالتشيع. ويقول صاحب الفهرست: وكان الشافعي شديدا في التشيع، وذكر له رجل مسألة فأجاب فيها، فقال له: خالفت علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) فقال له: أثبت لي هذا عن علي بن أبي طالب حتى أضع خدي على التراب وأقول قد أخطأت وأرجع عن قولي إلى قوله، وحضر ذات يوم مجلسا فيه بعض الطالبيين فقال: لا أتكلم في مجلس بحضرة أحدهم وهم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل. ص٢٧٩ .

وذكر ابن حجر في رواية أن الشافعي كان يقول: علي بن أبي طالب ابن عمي =

«وذكروا أن الشافعى - رضى الله عنه - كان فى أول الزمان فقيرا، ولما سلموه إلى المكتب ماكانوا يجدون أجرة المعلم، وكان المعلم يقصر فى التعليم إلا أن المعلم كلما علم صبيا شيئا كان الشافعى - رضى الله عنه - يتلقف ذلك الكلام، ثم إذا قام المعلم من مكانه أخذ الشافعى - رضى الله - عنه يعلم الصبيان تلك الاشياء، فنظر المعلم فرأى الشافعى - رضى الله عنه - يكفيه من أمر الصبيان أكثر من الأجرة التى يطمع بها منه، فترك طلب الأجرة واستمرت هذه الأحوال حتى

= وابن خالتى. فأشار الشافعى بذلك إلى أن أم جده الأعلى السائب بن عبيد، «الشفاء» بنت الأرقم بن هاشم بن عبد مناف، وأمها «خلدة» بنت أسد بن هاشم أخت «فاطمة» بنت أسد والدة على. ففاطمة أم على بن أبى طالب خالة إحدى جدات الشافعى، فأطلق عليها خالته مجازا. (ص٤٦).

وفى كتاب الانتقاء لابن عبدالبر: «قيل للشافعى: إن فيك بعض التشيع. قال: وكيف؟ قالوا: ذلك لأنك تظهر حب آل محمد. فقال: يا قوم ألم يقل رسول الله صلي الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» وقال: «إن أوليائى من عترتى المتقون» فإذا كان واجبا على أن أحب قرابتى وذوى رحمى إذا كانوا من المتقين. أليس من الدين أن أحب قرابة رسول الله صلي الله عليه وسلم إذا كانوا من المتقين. لأنه كان يحب قرابته وابنه. وله أبيات منها:

(إن كان رفضا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنى رافضى) ص٩١

ونقل الرازى: أن رجلا قال لابن حنبل: يا أبا عبدالله إن يحيى بن معين وأبا عبيدة ينسبان الشافعى إلى التشيع. فقال أحمد: لا أدرى مايقولان ، والله ما رأينا منه إلا خيراً. ثم قال لمن حوله اعلموا أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله - تعالى - شيئا وحرم قرناءه وأشكاله حسدوه فرموه بما ليس فيه، وبئست هذه الخصلة فى أهل العلم: ص٣٤.

وإذا صح أن الشافعى كان لايخلو من تشيع فهو لم يكن مسرفا ولامتعصبا، وليس أدل على ذلك من أن زوجه كانت عثمانية.

تعلم القرآن كله لسبع سنين - ص١٥ و١٦ (١).

ويروى عن الشافعي: أنه كان يحدث عن طفولته فيقول: «وكانت نهمتي في شيئين؛ في الرمي، وطلب العلم فنلت من الرمي حتى كنت أصيب من عشرة عشرة». وفى رواية من عشرة تسعة. وسكت عن العلم، فقال له بعض من كان يستمع إليه: أنت والله في العلم أكثر منك في الرمي.

ويروى عنه أيضا: أنه قال: كنت ألزم الرمي حتى كان الطبيب يقول لي: «أخاف أن يصيبك السل من كثرة وقوفك في الحر». تاريخ بغداد جـ ٦ ص٥٩ ، ٦٠.

ويظهر: أن حب الرماية لم ينزعه من بين جوانب الشافعي جلال السن وجلال الإمامة.

---

(١) وقد كان الشافعي يجيد حفظ القران ويكثر من تلاوته وتدبره، وروى عن الربيع أن الشافعي كان يختم القرآن في كل شهر ثلاثين ختمة، وفي شهر رمضان ستين ختمة. ختمة بالليل، وختمة بالنهار. (الرازى ص ١٢٤).

ويروى أنه كان يقرىء الناس في المسجد الحرام وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وكان حسن الصوت في القراءة، وأخرج ابن عدى من طريق أحمد بن صالح قال: كان الشافعي إذا تكلم كأن صوته صنج أو جرس من حسن صوته.

وأخرج الحاكم من طريق بحر بن نصر قال: كنا إذا أردنا أن نبكى قلنا: اذهبوا قوموا إلى هذا الفتى المطلبى الذى يقرأ القران، فإذا أتيناه استفتح القرآن حتى يتساقط الناس بين يديه ويكثر عجيجهم بالبكاءَ من حسن صوته، فإذا رأى ذلك أمسك.

وكان واسع العلم بالتفسير حتى قال يونس بن عبدالأعلي: كان الشافعي إذا أخذ في التفسير كأنه شاهد التنزيل، وكان الشافعي يقول: نظرت بين دفتي المصحف فعرفت مراد الله - تعالي - من جميع مافيه إلا حرفين أشكلا علي، قال الراوى: الأول نسيته، والثانى قوله تعالى: «وقد خاب من دساها» (الشمس ١٠) قال: فإني لم أجده في لغة العرب، ثم قرأت لمقاتل بن سليمان قال: إنه لغة السودان فإن «دساها» أغواها. الرازى ص١٢٤، ١٢٥ وابن حجر ص٦٠.

«عن المزني قال: كنت عند الشافعي فمر بهدف، فإذا رجل يرمي بقوس عربية، فوقف عليه الشافعي وكان حسن الرمي فأصاب سهاماً، فقال له الشافعي: أحسنت. وبرّك عليه. قال لي: مامعك؟ فقلت: ثلاثة دنانير، فقال: «أعطه إياها واعذرني إذ لم يحضرني غيرها». توالي التأسيس – ص٦٧ (١)

---

(١) ويظهر أن الشافعي كان يعرف جياد الخيل، ولعله كان من فرسانها وفي كتاب «مفتاح السعادة» لطاش كبرى زاده المتوفي سنة ٩٦٢هـ «روى عن الشافعي أنه قال: رأيت على باب مالك كراعاً من أفراس خراسان وبغال مصر ما رأيت أحسن منه، فقلت له: ما أحسنه! فقال: هو هدية مني إليك يا أبا عبدالله. قلت: دع لنفسك منها دابة تركبها. فقال: أنا أستحي من الله – تعالى – أن أطأ تربة فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة، ولم ير مالك راكباً بالمدينة قط. ج٢ ص٨٧.

وكان الشافعي متأثرا في خلقه وفي خلقه بالرياضة البدنية التي شغف بها منذ الصغر، فكان جسمه جسم الرياضيين، وكان خلقه خلق الرياضيين. ذكر زين الدين عمر بن الوردي أن ابن صلاح، نعت الشافعي لبعض ملوك الشام فقال: كان – رضي الله عنه وجزاه الخير– طويل سائل الخدين قليل لحم الوجه طويل العنق، طويل القصب، أسمر خفيف العارضين، يخضب لحيته بالحناء حمراء قانية، حسن الصوت حسن السمت، عظيم العقل حسن الوجه حسن الخلق، مهيبا فصيحا من أذرب الناس لسانا، إذا أخرج لسانه بلغ أنفه. ج ١ ص٢١٥.

ويظهر أن الشافعي كان لايحب السمن ولايحسن ظنه في أهله. ويروى أنه كان يقول: ما أفلح سمين إلا محمد بن الحسن. وتلك مقالة رجل رياضي. ومن أخلاق الرياضيين العزة والاحتمال والقصد والبر والصيانة. وقد كان الشافعي عزيزا صبورا مقتصدا خيرا وروى عن الربيع أنه قال: قال عبدالله بن الحكم للشافعي: إذا أردت أن تسكن البلد، يعني مصر، فليكن لك قوت سنة ومجلس من السلطان تتعزز به.

فقال له الشافعي: يا أبا محمد من لم تعزه التقوى فلا عز له، وقد ولدت بغزة وربيت بالحجاز وماعندنا قوت ليله وما بتنا جياعا قط.

ومما يتصل بذلك ماروى أن الربيع سئل: كيف كان لباس الشافعي؟ قال: كان مقتصدا فيه: يلبس الثياب الرفيعة من الكتان والقطن البغدادي، وكان ربما لبس قلنسوة ليست مشرفة جداً، ويلبس كثيرا العمامة والخف، وكان لايأتي عليه يوم لايتصدق، ويتصدق بالليل ولاسيما في رمضان، ويتفقد الفقراء والضعفاء. ابن حجر ص٦٧ ،٦٨.

وكان شيوخ مكة يصفون الشافعي من أول صغره بالذكاء والعقل والصيانة ويقولون: لم نعرف له صغيرة. كتاب مرآة الجنان ج٣ ص ٢١.

قال الشافعي: «لما ختمت القرآن دخلت المسجد أجالس العلماء وأحفظ الحديث والمسألة، وكان منزلنا بمكة في شعب الخيف، وكنت فقيراً بحيث ما أملك ما أشتري به القراطيس، فكنت آخذ العظم أكتب فيه، وأستوهب الظهور من أهل الديوان وأكتب فيها» الرازي – ص١٦.

وكان الشافعي فى أول أمره يطلب الشعر وأيام الناس والأدب. قال الشافعي: « وخرجت من مكة – يعنى بعد أن بلغ – قال: فلزمت هذيلا بالبادية أتعلم كلامها وآخذ اللغة. وكانت أفصح العرب (١)». ابن حجر ص٥٠. ثم توجه الشافعى إلى

---

(١) ويقول الرازي: اعلم أن المتقدمين من أئمة اللغة والمتأخرين منهم، اعترفوا للشافعي بالتقدم في علم اللغة واقروا له بكمال الفصاحة. نقل عن الأصمعي أنه قال: قرأت ديوان الهذليين على شاب من شباب قريش يقال له «محمد بن إدريس الشافعي».

وحكى ابن دريد عن أبي حاتم السجستاني عن الأصمعي أنه قال: قرأت شعر الشنفرى على محمد بن إدريس. ثم نقل الرازى شهادة المازنى والجاحظ وثعلب وأبى منصور الأزهرى وأبي سليمان الخطابى ونفطويه والزمخشرى للشافعي، وقال بعد أن نقل كلام الزمخشرى فى الكشاف، الذى يرجح به رأى الشافعي في تفسير بعض الآيات: مانصه:

هذا كلام صاحب الكشاف، نقلته بلفظه. وهو صريح بأن نظر الشافعي ـ رضى الله عنه ـ فى هذه الآية أتم، ووقوفه على العربية أكمل. مع أن صاحب الكشاف كان على مذهب أبى حنيفة، فكانت شهادته للشافعي بالتقدم فى هذا العلم دليلا على أن الأمر كذلك. الرازي، ص١٥٣ إلى ١٥٦.

وفي معجم الأدباء لياقوت نقلاً عن الآبرى، قال: وسمعت ابن هشام يقول: الشافعي كلامه لغة يحتج به. وحدثت عن محمد بن الحسن الزعفراني قال: كان قوم من أهل العربية يختلفون إلي مجلس الشافعي معنا، ويجلسون ناحية، قال: فقلت لرجل من رؤسائهم: إنكم لاتتعاطون العلم فلم تختلفون معنا؟ قالوا: نسمع لغة الشافعي...

وحدث ابن خزيمة قال: سمعت يونس بن عبدالأعلى يقول: كان الشافعي إذا أخذ فى –

الفقه يدرسه، وقد اختلفت الروايات فى سبب توجهه إلى الفقه، وتكاد ترجع كلها إلى نصح الناصحين له: أن يصرف جهده وذكاءه في علم تكمل به سيادته من غير خطر على دينه. ولم يكن يومئذ إلا الفقه سبيلا إلي ذلك.

ويعبر عن روح الوقت من تلك الناحية ماارواه الخطيب البغدادى فى تاريخه عن أبى يوسف قال: قال أبو حنيفة: لما

= العربية قلت هو بهذا أعلم، وإذا تكلم فى الشعر وإنشاده قلت: هو بهذا أعلم، وإذا تكلم فى الفقه قلت: هو بهذا أعلم. جـ ٦ ص٢٧٩ و٢٨٠.

وذكر البغدادى فى تاريخ بغداد عن أبى الوليد بن أبى الجارود أنه كان يقول: ما رأيت أحداً إلا وكتبه أكثر من مشاهدته إلا الشافعي، فإن لسانه كان أكثر من كتابه. جـ ٢ ص ٦٧.

وقد رووا للشافعى أشعاراً يكفى فى الحكم عليها أن نذكر ماذكره الرازى من أن الشافعى كان يقول:

لايكاد يجود شعر القرشيين: لأن لله - تعالى - قال لنبيه صلى الله عليه وسلم (وماعلمناه الشعر وماينبغى له) ولايكاد يجود خط القرشى، لأن النبى صلي الله عليه وسلم ماكان يكتب بدليل قوله تعالى (ولاتخطه بيمينك) «العنكبوت (٤٨)» ص ١٩٥ على انه يقع للشافعي فيما يروى له من الشعر مايكون جيداً كقوله:

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما

وقوله: ماطار طيـــر وارتفـــع ... إلا كمـا طـــار وقـــع

وقوله: لا تأس فى الدنيا على فائت ... وعندك الإسلام والعافية

وقوله: وأحق خلق الله بالهم امرؤ ... ذو همة يبلى بعيش ضيق

وقوله: أكل العقاب بقوة جيف الفلا ... وجنى الذباب الشهد وهو ضعيف.

أردت طلب العلم جعلت أتخير العلوم وأسأل عن عواقبها، فقيل لي: تعلم القرآن. فقلت: إذا تعلمت القرآن وحفظته فيما يكون آخره؟ قالوا: تجلس فى المسجد ويقرأ عليك الصبيان والأحداث، ثم لاتلبث أن يخرج فيهم من هو أحفظ منك أو يساويك فى الحفظ، فتذهب رياستك. قلت: فإن سمعت الحديث وكتبته حتى لم يكن فى الدنيا أحفظ منى؟ قالوا: إذا كبرت وضُعفت حدثت واجتمع عليك الأحداث والصبيان، ثم لم تأمن أن تغلط فيرموك بالكذب، فيصير عاراً عليك فى عقبك. فقلت: لاحاجة لى فى هذا ثم قلت: أتعلم النحو فقلت: إذا تعلمت النحو والعربية مايكون آخر أمرى؟ قالوا: تقعد معلما وأكثر رزقك ديناران إلى الثلاثة. قلت وهذا لاعاقبة له. قلت: فإن نظرت في الشعر فلم يكن أحد أشعر منى، مايكون من أمرى؟ قالوا: تمدح هذا فيهب لك ويحملك على دابة أو يخلع عليك خلعة، وإن حرمك هجوته فصرت تقذف المحصنات . فقلت: لاحاجة لى فى هذا. قلت: فإن نظرت فى الكلام فما يكون آخره؟ قالوا: لايسلم من نظر فى الكلام من شنعات الكلام فيرمى بالزندقة، فإما أن يؤخذ فيقتل، وإما أن يسلم فيكون مذموما. قلت: فإن تعلمت الفقه؟ قالوا: تسأل وتفتى الناس وتطلب للقضاء وإن كنت شابا. قلت: ليس فى العلوم شيء أنفع من هذا، فلزمت الفقه وتعلمته (تبييض الصحيفة ص١١ و١٢).

وتفقه الشافعي أول أمره على «مسلم بن خالد الزنجي» مفتي مكة سنة ١٨٠هـ ، ٧٩٦م، مولى بني مخزوم، وقد اختلف النقاد في أمر مسلم فقيل: ثقة، وقيل: ضعيف، وقيل: ليس بشيء، وقال البخاري: منكر الحديث، ونقل أنه كان يرى القدر. ولعل هذا هو سر تضعيفه.

ويقولون: إن مسلم بن خالد الزنجي قال للشافعي: أفت يا أبا عبدالله فقد آن لك أن تفتي. وكان الشافعي حينئذ دون عشرين سنة.

وأخذ الشافعي في مكة عن: «سفيان بن عيينة الهلالي» المتوفي سنة ١٩٨هـ ٨١٣م أحد الثقات الأعلام، وروي عن بعضهم: أنه اختلط سنة ١٩٧هـ ٨١٢م.

ثم رحل الشافعي إلى المدينة ليطلب العلم على «مالك بن أنس » فقرأ الموطأ على مالك بعد أن حفظه عن ظهر قلب في مدة يسيرة، وأقام بالمدينة إلي أن توفي مالك سنة ١٧٩هـ ٧٩٥م.

وخبر رحلته إلى مالك مروي على وجوه مختلفة، تتفق كلها في أن الشافعي كان فقيراً لايملك نفقة السفر علي فرط شوقه إلى الأخذ عن إمام دار الهجرة.

ثم يسر الله له أسباب الرحلة، وأحسن مالك لقاءه لما تفرس من نجابته وفضله.

وتلقى الشافعى فى المدينة عن غير مالك كإبراهيم بن أبى يحيى الذى يقول الرازى: اتفقوا على أنه كان معتزليا.

وخرج الشافعى إلى اليمن بعد موت مالك.

«قال الشافعى: لما مات مالك كنت فقيراً، فاتفق أن والى اليمن قدم المدينة فكلمه بعض القرشيين فى أن أصحبه، فذهبت معه واستعملنى فى أعمال كثيرة، وحمدت فيها، والناس أثنوا على» الرازى ص١٨

وكادت الولاية تشغل الشافعى عن العلم حتي نبهه بعض شيوخه فانتبه.

قال الشافعى: كنت على عمل باليمن، واجتهدت فى الخير والبعد عن الشر، ثم قدمت إلى المدينة فلقيت ابن أبى يحيى وكنت أجالسه، فقال لى: تجالسوننا وتسمعون منا، فإذا ظهر لأحدكم شىء دخل فيه.

ثم لقيت ابن عيينة فقال: قد بلغنا ولايتك فما أحسن ما انتشر عنك، وأديت كل الذى لله عليك، ولاتعد.

قال الشافعى – رضى الله عنه : موعظة ابن عيينة أبلغ مما صنع ابن أبى يحيى – الرازى ص٢٠.

وقد أخذ الشافعى عن جماعة من أهل اليمن منهم مطرف بن مازن الصنعاني المتوفى سنة ١٩١ – ٨٠٦م. وقد كذبه يحيى بن معين، وقال النسائى: ليس بثقة. وقال غيره كان قاضى صنعاء

وكان رجلا صالحا.

وعمرو بن أبى سلمة المتوفى سنة ٢١٤هـ - ٨٢٩م وهو صاحب الأوزاعى:

ويقولون: إن الشافعى جمع كتب الفراسة من اليمن واشتغل بها حتى مهر فيها.

ارتفع شأن الشافعى فى اليمن، «ثم إن الحساد سعوا به إلى هارون الرشيد، وكان باليمن واحدٌ من قواده فكتب يخوِّفه من العلويين، وذكر فى كتابه : أن معهم رجلا يقال له محمد بن إدريس الشافعى يعمل بلسانه ما لا يقدر المقاتل عليه بسيف، فإن أردت أن تبقى الحجاز عليك فاحملهم إليك.

فبعث الرشيد إلى اليمن، وحملوا الشافعى مع العلوية إلى العراق» الرازى ص١٨

وتلك هى المحنة التى اقتضت دخول الشافعى العراق. وفى حديث هذه المحنة اختلاف كبير وقد يكون أسلم هذه الروايات من الحشو وأدناها إلى الاعتدال والقصد، ما رواه ابن عبد البر فى كتاب «الانتقاء» قال :

«حمل الشافعى من الحجاز، مع قوم من العلوية تسعة وهو العاشر، إلى بغداد، وكان الرشيد بالرقة، فحملوا من بغداد إليه وأدخلوا عليه ومعه قاضيه : «محمد بن الحسن الشيبانى» وكان صديقا للشافعى، وأحد الذين جالسوه فى العلم وأخذوا

عنه (١)، فلما بلغه أنَّ الشافعى فى القوم الذين أخذوا من قريش بالحجاز واتهموا بالطعن على الرشيد والسعى عليه ، اغتم لذلك غما شديدا، وراعى وقت دخولهم على الرشيد. قال : فلما أدخلوا على الرشيد سألهم وأمر بضرب أعناقهم . فضربت أعناقهم إلى أن بقى حدث علوى من أهل المدينة، وأنا ، فقال للعلوى : أأنت الخارج علينا والزاعم أنى لا أصلح للخلافة ؟ فقال العلوى: لن أدعى ذلك أو أقوله . قال : فأمر بضرب عنقه ، فقال العلوى: إن كان لابد من قتلى فانظرنى أكتب إلى أمى بالمدينة، فهى عجوز لم تعلم بخبرى. فأمر بقتله فقتل.

ثم قدمتُ ومحمد بن الحسن جالس معه، فقال لى مثل ما قال للفتى، فقلت : يا أمير المؤمنين لستُ بطالبىّ ولا علَوىّ، وإنما أُدخلت فى القوم بغياً علىّ، وإنما أنا رجل من بنى المطلب بن عبد مناف بن قصى، ولى مع ذلك حظٌ من العلم والفقه، والقاضى يعرف ذلك، وأنا محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف . فقال لى: أنت محمد بن إدريس ؟ فقلت: نعم يا أمير المؤمنين . قال: ما ذكرُك لى محمد بنَ الحسن؟ ثم عطف على محمد بن الحسن فقال: يا محمد ، ما يقول هذا هو كما يقوله؟ قال: بلى، وله من العلم محل كبير، وليس الذى رفع

(١) لعل فى العبارة تحريفا فإن المعروف أن الشافعى هو الذى أخذ عن محمد.

عليه من شأنه. قال: فخذه إليك حتى أنظر فى أمره. فأخذنى محمد وكان سبب خلاصى لما أراد الله - عز وجل - منه . ص ٩٧، ٩٨ -

ويقول ابن حجر فى كتاب «توالى التأسيس» ص - ٧١ : «وأما الرحلة المنسوبة إلى الشافعى ، المروية من طريق عبد الله ابن محمد البلوى فقد أخرجها الآبرى، والبيهقىّ، وغيرهما مطولة ومختصرة، وساقها الفخر الرازى فى مناقب الشافعى بغير إسناد معتمداً عليها، وهى مكذوبة، وغالب ما فيها موضوع، وبعضها ملفق من روايات ملفقة، وأوضح ما فيها من الكذب، قوله فيها: إن أبا يوسف ومحمد بن الحسن حرَّضا الرشيد على قتل الشافعى، وهذا باطل من وجهين: أحدهما - أن أبا يوسف لما دخل الشافعى بغداد كان قد مات ولم يجتمع به الشافعى.

والثانى - انهما كانا أتقى لله من أن يسعيا فى قتل رجل مسلم لا سيما وقد اشتهر بالعلم، وليس له إليهما ذنب إلا الحسد على ما آتاه الله من العلم. هذا مالا يُظنّ بهما، وإن منصبهما وجلالتهما، وما اشتهر من دينهما ليصدّ عن ذلك.

والذى تحرَّر لنا بالطرق الصحيحة : أن قدوم الشافعى بغداد أول ما قدم كان سنة ١٨٤هـ - ٨٠٠م. وكان أبو يوسف قد مات قبل ذلك بسنتين، وأنه لقى محمد بن الحسن فى تلك

القدمة، وكان يعرفه قبل ذلك من الحجاز وأخذ عنه ولازمه.

وممن أخذ عنهم الشافعى فى العراق «وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسى أبو سفيان الكوفى الحافظ» المتوفى سنة ١٩٠هـ - ٨٠٥م - ٨٠٦م، و«حماد بن أسامة الهاشمى الكوفى» المتوفى سنة ٢١٠هـ - ٨٢٥م، و«عبد الوهاب بن عبد المجيد البصرى» المتوفى سنة ١٩٤هـ - ٨٠٩ - ٨١٠م . وقد قرأ الشافعى كتب «محمد بن الحسن الشيبانى» المتوفى سنة ١٨٩هـ - ٨٠٤ - ٨٠٥م ولازمه وأخذ عنه.

ولم نر فيما بين أيدينا من تراجم الشافعى ذكر مدة مقامه فى بغداد فى هذه القدمة.

وقدم الشافعى بعد ذلك إلى بغداد سنة ١٩٥هـ - ٨١٠ - ٨١١م فأقام سنتين واشتهرت جلالة الشافعى - رحمه الله - فى العراق وسار ذكره فى الآفاق وأذعن بفضله الموافقون والمخالفون.. وعكف عليه للاستفادة منه الصغار والكبار من الأئمة والأحبار من أهل الحديث والفقه وغيرهما، ورجع كثيرون منهم عن مذاهب كانوا عليها إلى مذهبه، وتمسكوا بطريقته، كأبى ثور وخلائق لا يحصون ... وصنّف فى العراق كتابه القديم، ويسمى «كتاب الحجة» ويرويه عنه أربعة من جلّة أصحابه وهم : أحمد بن حنبل، وأبو ثور، والزعفرانى، والكرابيسى». شرح المهذب للنووى جـ١ ص٩.

ثم خرج الشافعي إلى مكة وعاد إلى بغداد في سنة ١٩٨هـ ٨١٣-٨١٤م وأقام بها أشهرا، ثم إنه خرج إلى مصر في هذه السنة كما في معجم الأدباء.

ويقول ياقوت في موضع آخر : «ويقال إن الشافعي - رضي الله عنه - قدم إلى مصر سنة ١٩٩هـ ٨١٤-٨١٥م في أول خلافة المأمون، وكان سبب قدومه إلى مصر أن العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى عبد الله بن العباس استصحبه فصحبه ، وكان العباس هذا خليفة لأبيه على مصر» . جـ٦ ص٣٩٤ (١)

---

(١) وليس معنى ذلك أن الشافعي إنما خرج إلى مصر لمجرد الرغبة في مصاحبة الوالي، فقد كان يتشوق إلى مصر من قبل، ورووا في ذلك شعراً :

أرى النفس قد أضحت تتوق إلى مصر ... ووالله ما أدرى اللخفض والغنى

ومن دونها جوب الحزونة والوعر ... أساق إليها أم أساق إلى قبرى؟

وروى هذا الشعر أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه في كتاب البلدان المؤلف نحو سنة ٢٩٠هـ منسوبا إلى أبي نواس، فيكون الشافعي قد تمثل بها.

وقد يفهم سبب خروج الشافعي إلى مصر مما ذكره ابن البزاز الكردي في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة على مافيه من التحامل البين : عن الجارود بن معاوية قال: كان الشافعي - رضي الله عنه - بالعراق يصنف الكتب وأصحاب محمد يكسرون عليه أقاويله بالحجج، ويضعفون أقواله، وضيقوا عليه . وأصحاب الحديث أيضا لا يلتفتون إلى قوله ، ويرمونه بالاعتزال، فلما لم يقم له بالعراق سوق خرج إلى مصر ولم يكن بها فقيه معلوم فقام بها سوقه. ج٢ ص١٥٣

وإذا كان الشافعي قد خرج إلى مصر يلتمس نشرمذهبه فهو إنما أراد أن يلتمس لآرائه ميدانا جديداً بعد أن أدرك النصر في الحجاز والعراق.

وقال ربيع : سألني الشافعي عن أهل مصر فقلت : هم فرقتان ، فرقة مالت إلى قول مالك وناضلت عليه، وفرقة مالت إلى قول أبي حنيفة وناضلت عليه ، فقال : أرجو أن أقدم مصر - إن شاء الله - فأتيهم بشئ أشغلهم عن القولين جميعا.

قال ربيع : ففعل ذلك والله حين دخل مصر . ابن حجرص٧٧.

وفى شرح المهذب :«وقال الربيع : قدم الشافعى (مصر) سنة مائتين.ولعله قدم فى آخر سنة تسع، جمعاً بين الروايتين.

وصنّف كتبه الجديدة كلها بمصر، وسار ذكره فى البلدان، وقصده الناس من الشام والعراق واليمن وسائر النواحى، للأخذ عنه وسماع كتبه الجديدة». ص٩

وفى ابن خلكان : «ثم إلى بغداد سنة ثمان وتسعين ومائة فأقام بها شهراً ثم خرج إلى مصر، وكان وصوله إليها سنة تسع وتسعين ومائة وقيل إحدى ومائتين».

وأقام الشافعى بمصر إلى أن مات سنة ٢٠٤هـ و٨١٩ – ٨٢٠م (١) وكان فى آخر عمره عليلا شديد العلة من البواسير، حتى قالوا : إن صدره أصبح ضيقا، وإنه كان يقول: إنى لآتى الخطأ وأنا أعرفُه. يعنى ترك الحمية.

وفى كتاب «توالى التأسيس» لابن حجر: «قلت: قد اشتهر أن سبب موت الشافعي: أن فتيان بن أبى السمح المالكى المصرى وقعت بينه وبين الشافعى مناظرة، فبدرت من فتيان بادرة فرفعت إلى أمير مصر، فطلبه وعزّره، فحقد ذلك ، فلقى الشافعى ليلاً فضربه بمفتاح حديد فشجّه فتمرض الشافعى منها إلى أن مات. ولم أر ذلك من وجه يعتمد»ص٨٦.

---

(١) فى كتاب التوفيقات الإلهامية لمحمد مختار باشا: فى ٤ من يناير سنة ٨٢٠م كانت وفاة الإمام محمد بن إدريس الملقب بالشافعي – رضى الله عنه – وهو صاحب المذهب الشافعي، ولم يبلغ من العمر أكثرمن ٥٤ سنة ودفن بالقرافة الصغرى. ص١٠٢.

لم تقتل الشافعي شجة «فتيان» المزعومة. إنما قتل الشافعي ما بذله من جهد عنيف فى السنين الأربع التى أقامها بمصر، ما بين تأليف وتدريس ومناظرة، وسعي فى بث مذهبه، ومدافعة كيد خصومه، هذا إلى مرضه المنهك، وقد كان فى ذلك العهد مصابا بنزيف من الباسور.

قال الربيع تلميذه : أقام الشافعي هنا أربع سنين، فأملى ألفا وخمسمائة ورقة، وخرج كتاب «الأم» ألفى ورقة، وكتاب «السنن»، وأشياء كثيرة، كلّها فى مدة أربع سنين، وكان عليلا شديد العلة.....» ابن حجرص٨٣. وكان يلازم الاشتغال بالتدريس والإفادة فى جامع عمرو.

وكان يجلس فى حلقته إذا صلى الصبح، فيجيئه أهل القرآن فيسألونه، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه عن معانيه وتفسيره، فإذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة، فإذا ارتفع النهار تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو، حتى يقرب انتصاف النهار، ثم ينصرف إلى منزله. ابن حجر ص٦٢.

وأخرج أبو نعيم من طريق ابن حسين البصري: سمعت طبيبا مصريا يقول : ور د الشافعي مصر فذاكرني بالطب حتى ظننت أنه لا يحسن غيره، فقلت له : أقرأ عليك شيئاً من كتاب أبقراط، فأشار إلى الجامع فقال إن هؤلاء لا يتركونني . ابن حجر ص٦٦.

وقد يكون الشافعى درس الطب فيما درسه من العلوم فى العراق حينما جاءها أول مرة.

وقد يكون درس علوم التنجيم أيضا هناك، وإنهم ذكروا أن الشافعى اشتغل بعلوم التنجيم، وكل ذلك يدلك على ما كان من شغف للإمام بالعلم كله.

وقد يكون هذا الجلوس المتوالى فى الجامع من أسباب ما أصيب به الإمام من المرض.

وذكر الأستاذ مصطفى منير أدهم فى رسالته «رحلة الإمام الشافعى إلى مصر»: أن أهل الإمام ذهبوا إلى الوالى فى صباح الليلة التى توفى فيها، وكان الوالى هو محمد بن السرى ابن الحكم، وطلبوا إليه الحضور لتغسيل الإمام كما أوصى، فقال لهم الوالى : هل ترك الإمام دينا ؟ قالوا نعم. فأمر الوالى بسداد ذلك الدين كله، ثم نظر إليهم وقال لهم: هذا معنى تغسيلى له.

وإن صحت هذه القصة التى لم يذكر راويها (١) لها إسناداً

---

(١) وقد عثرت على هذه الرواية فى كتاب (تاريخ مصر) المشهور (ببدائع الزهور فى وقائع الدهور) ولفظه . قيل : لما مرض الإمام الشافعى أوصى بأن لا يغسله إلا أمير البلد، فلما مات حضر محمد بن السرى أمير البلد، فقيل له: إن الإمام أوصى بأن لا يغسله إلا أنت، فقال : هل توفى الإمام وعليه دين؟ فقيل : نعم. فحسبوا ما عليه من الدين فإذا هو سبعون ألف درهم، فقضاها عنه محمد بن السرى أوقال : هذا غسلى إياه. وإنما كنى عن الدين الذى عليه لأقضيه عنه . ج٣ – ص٢٣.

فهى تدلّ على أن الشافعى خرج من الدنيا فقيراً كما دخلها فقيراً.

ولسنا نشك فى أن الشافعى مات فقيراً، لكنا نشك فى أمر استدانته، فقد روى ابن حجر فى «توالى التأسيس» عن ابن أبى حاتم عن أبيه عن عمرو بن سواد السرجى قال : قال لى الشافعى : أفلست ثلاث مرات فكنت أبيع قليلى وكثيرى حتى حلى ابنتى وزوجتى ، ولم أستدن قط. ص٦٧

وتزوج الشافعى (حميدة) بنت نافع بن عنبسة بن عمرو بن عثمان بن عفان، فولدت له (أبا عثمان محمدا) وكان قاضيا لمدينة حلب، (وفاطمة) ، (وزينب).

الدراسات الفقهية إلى عهد الشافعي

كان التشريع فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم يقوم على الوحى : من الكتاب والسنة ، وعلى الرأى من النبى ومن أهل النظر والاجتهاد من أصحابه، بدون تدقيق فى تحديد معنى الرأى وتفصيل وجوهه، وبدون تنازع ولا شقاق بينهم.

ومضى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وجاء بعده عهد الخلفاء الراشدين من سنة ١١هـ - ٦٣٢م إلى سنة ٤٠هـ - ٦٦٠م قد اتفق الصحابة فى هذا العهد على استعمال القياس فى الوقائع التى لا نص فيها من غير نكير من أحد منهم، وفى هذا العهد أخذت تبدو الصورة الأولى من صور الإجماع بما كان يركن إليه الأئمة من مشاورة أهل الفتوى من الصحابة، وكان أهل الفتوى من الصحابة يومئذ، وهم المعتبرون فى الإجماع، قلة لا يتعذر تعرف الاتفاق بينهم فى حكم من الأحكام .ولم يكن يفتى من الصحابة إلاّ حملة القرآن الذين كتبوه وقرأوه وفهموا وجوه دلالته وناسخه ومنسوخه، وكانوا يُسَمَّوْن «القراء» لذلك، وتمييزاً لهم عن سائر الصحابة بهذا الوصف الغريب فى أمة أميّة - لا تقرأ ولا تكتب.

ثم كان عصر بنى أمية من سنة ٤٠هـ - ٦٦٠م إلى سنة

١٣٢هـ - ٧٤٩م وتكاثر الممارسون للقراءة والكتابة من العرب، ودخلت فى دين الله أمم ليست أمّية، فلم يعد لفظ القراء نعتاً غريباً يصلح لتمييز أهل الفتوى ومن يؤخذ عنهم الدين، هنالك استعمل لفظ «العلم» للدلالة على حفظ القرآن ورواية السنن والآثار وسمى أهل هذا الشأن «العلماء» واستعمل لفظ «الفقه» للدلالة على استنباط الأحكام الشرعية بالنظر العقلى فيما لم يرد فيه نص كتاب ولا سنة.

وسمى أهل هذا الشأن «الفقهاء»، فإذا جمع امرؤ بين الصفتين جمع له اللفظان أو ما يرادفهما.

وفى طبقات ابن سعد: «كان ابن عمر جيد الحديث غير جيد الفقه، وكان زيد بن ثابت فقيهاً فى الدين عالماً بالسنن».

وقد كان كثير من الصحابة والتابعين يكره كتاب العلم وتخليده فى الصحف، كابن عباس، والشعبى، والنخعى، وقتادة، ومن ذهب مذهبهم وهؤلاء كلهم عرب طبعوا على الحفظ جبلة العرب. قال ابن عبد البر: من كره كتاب العلم إنما كرهه لوجهين أحدهما - ألا يتخذ مع القرآن كتاب يضاهى به، ولئلا يتكل الكاتب على ما يكتب فلا يحفظ فيقل الحفظ. (مختصر جامع بيان العلم ص٣٤).

ولما انقرض عهد الصحابة ما بين تسعين ومائة من الهجرة وجاء عهد التابعين، انتقل أمر الفتيا والعلم بالأحكام إلى الموالى

إلا قليلا. «عن عطاء قال: دخلت على هشام بن عبد الملك فقال: هل لك علم بعلماء الأمصار؟ قلت : بلى . قال: فمن فقيه المدينة؟ قلت : «نافع» مولى ابن عمر، وفقيه مكة «عطاء بن رباح» المولى، وفقيه اليمن «طاوس» بن كيسان المولى، وفقيه الشام «مكحول» المولى، وفقيه الجزيرة «ميمون» بن مهران المولى، وفقيها البصرة «الحسن وابن سيرين» المولبان، وفقيه الكوفة «إبراهيم النخعي العربي . قال هشام : لولا قولك عربي لكادت نفسي تخرج» مناقب الإمام الأعظم للبزاز ج١ – ص٥٧

عندئذ تضاءلت النزعة العربية إلى خطر التدوين وصارت كتابة العلم أمراً لازماً. «عن سعد بن إبراهيم قال : أمرنا عمر ابن عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١هـ – ٧٢٠م بجمع السنن فكتبناها دفتراً دفتراً فبعث إلى كل بلد له عليها سلطان دفتراً». مختصر جامع بيان العلم ص٣٣.

وقد بدت مخايل نهضة في التشريع الإسلامي منذ ذلك العهد فحصل تدوين بعض السنن وبعض المسائل، ولم يصل إلينا من تلك المدونات إلا صدى (١).

---

(١) على أن تلك المدونات لم تكن إلا صحائف أو مذكرات. أما أول تدوين للسنن بالمعنى الحقيقي فيقع نحو ما بين سنتي ١٢٠ و١٥٠ هـ

ويقول ابن قتيبة : إن ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ هو أول من كتب الحديث.

وفي كتاب «كشف الظنون» : «واعلم أنه اختلف في أول من صنف فقيل: الإمام عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج البصري المتوفى سنة ١٥٥ هـ ٧٧١ ـ ٧٧٢م وقيل أبوالنصر سعيد بن أبي عروبة المتوفى سنة ١٥٦ هـ ٧٧٢ ـ ٧٧٣م ذكرهما الخطيب البغدادي. وقيل ربيع بن صبيح المتوفى سنة ١٦٦ هـ ٧٨٢ ـ ٧٨٣ «قاله الرامهرمزي».

وكان مطمح نظرهم بالتدوين ضبط معاقد القرآن والحديث ومعانيهما» ج١ ص٢٥، ٢٦.

ويقـول «جـولد زيهـر» فى مقـاله عن كلمـة (فقـه) فى دائرة المعارف الإسـلامية: «وينبغى ألا يعطى كبير ثقة لما نسب لهشام ابن عروة من أنه فى يوم الحرة حرّقت لأبيه كتب فقه، ولا يمكن أن يتصوُّر بحـال أنّه فى ذلك العـهد البعيد كـانت توجد كتب بالمعنى الصحيح وإنما هى صحائف متفرقة. وتوفى عروة سنة ٩٤هـ ـ ٧١٢م التى كانت تسمى «سنة الفقهاء» لّكثرة من مات فيها من الفقهاء».

وبالجـملة: فـإنه إذا كـان دوِّن شئ لضـبط مـعـاقـد القـرآن والحديث ومعانيهما فى عهد بنى أمية، فإن التدوين فى الفقه بالمعنى المحدث لم يكن إلا فى عهد العباسيين.

هذا هو الرأى الذى كـان مـقـررا بين البـاحـثين، لكن «جولدزيهر» يذكر فى المقال الذى أشرنا إليه آنفا ما يأتى: «وقد اكـتـشف «جـرفـينى» بين المخطوطات القـيـمـة فى المكتـبـة «الأمبروزية» بميلانو الخاصة ببلاد العرب الجنوبية، مختصرا فى (الفقه) اسمه (مجموعة زيد بن على) المتوفى سنة ١٢٢هـ ـ ٧٤٠م وهو منسـوب إلى مؤسس فـرقـة (الزيدية) من الشـيـعـة، وعلى ذلك تكون هذه المجـمـوعـة أقـدم مـجـمـوعـة فى الفقـه الإسلامى. وعلى كل حال ينبغى أن يوضع هذا الكتاب موضع الاعتبار فيما يتعلق بتاريخ التأليف فى الفقه الإسلامى. وإذا صح أنه وصل إلينا من بطانة «زيد بن على» وجب أن نعـتـرف

بأن أقدم ماوصل إلينا من المصنفات الفقهية هو من مؤلفات الشيعة الزيدية».

على أن البحث الذى أثير لتعيين مركز هذا الكتاب بين المؤلفات الفقهية لم يكمل.

ومن أسف أنّ هذا البحث لم يثره مسلمون، ولا أثيرَ فى بلاد إسلامية،

وقد ذكر صاحب «الفهرست» عند الكلام على الزيدية مانصه: الزيدية الذين قالوا بإمامة زيد بن على ـ عليه السلام ـ ثم قالوا بعده بالإمامة فى ولد «فاطمة» كائناً من كان، بعد أن يكون عنده شروط الإمامة. وأكثر المحدِّثين على هذا المذهب مثل «سفيان بن عيينة» و «سفيان الثورى».. ص١٨٧.

وعلاقة هذين الإمامين بنهضة الفقه عند أهل السنة تجعل للبحث الذى يشير إليه «جولدزيهر» شأنا خطيرا.

وجاء عهد العباسيين منذ سنة ١٣٢هـ ٧٤٩ ـ ٧٥٠م وشجع الخلفاء الحركة العلمية وأمدوها بسلطانهم، فكان طبيعيا أن تنتعش العلوم الدينية فى ظلهم، بل كانت حركة النهوض أسرع إلى العلوم الشرعية؛ لأنها كانت فى دور نمو طبيعى وتكامل.

وهناك سبب آخر يذكره «جولدزيهر» فى كتابه «عقيدة الإسلام وشرعه» هو: «أن حكومة الأمويين كانت متهمة بأنها دنيوية، فحلت محلها دولة دينية سياستها سياسة ملية».

كان العباسيون يجعلون حقهم فى الإمامة قائما على: أنهم سلالة البيت النبوى، وكانوا يقولون: إنهم سيشيدون على أطلال الحكومة الموسومة عند أهل التقى بالزندقة نظاما منطبقا على سنة النبى وأحكام الدين الإلهى.

ويلاحظ أن المثل الأعلى للسياسة الفارسية، وهو الاتصال الوثيق بين الدين والحكومة، كان برنامج الحكم العباسى.

وقد اقتضى ضبط أمور الدولة على منهاج شرعى، جمع الأحكام الشرعية، وتدوينها.

وفى صدر العهد العباسى تمكن الاستنباط واستقرت أصوله وجعل لفظ «الفقه» ينتهى بالتدريج إلى أن يكون غير مقصور على المعنى الأصلى، أى الاستنباط من الأدلة التى ليست نصوصاً، وأصبح المعنى الأول للفقه هو: «الأحكام الشرعية العملية المأخوذة من أدلتها التفصيلية» نصوصاً كانت أو رأياً، وسمى أهل هذا الشأن بالفقهاء، ونشأ التأليف فى الفقه بهذا المعنى، وانقسم الفقه إلى طريقتين: طريقة أهل الرأى والقياس، وهم أهل العراق، وطريقة أهل الحديث، وهم أهل الحجاز.

أهل الرأى وأهل الحديث

ومقدم جماعة أهل الرأى الذى استقر المذهب فيه وفى أصحابه هو: «أبو حنيفة» المعتبر أباً لمذهب أهل العراق، أسَّسه وأعانه على تأسيسه تلميذاه الجليلان: «أبو يوسف» القاضى المتوفى سنة ١٨٢هـ ـ ٧٩٧م و«محمد بن الحسن» الشيبانى المتوفى سنة ١٨٩هـ ـ ٨٠٤م

ولئن كان حماد بن سليمان الكوفى المتوفى سنة ١٢٠هـ ـ ٧٣٧ و٧٣٨م هو أول من جمع حوله طائفة من التلاميذ يعلمهم الفقه، مع ميل غالب للرأى ، وكان «أبو حنيفة» من هؤلاء التلاميذ، فإن حماداً لم يترك أثراً علميا مكتوبا، أما أبو حنيفة فيقول صاحب «الفهرست»: «وله من الكتب كتاب الفقه الأكبر – كتاب رسالته إلى البستى – كتاب العالم والمتعلم رواه عنه مقاتل – كتاب الرد على القدرية – والعالم براً وبحراً، شرقا وغربا، بعداً وقرباً، تدوينه ـ رضى الله عنه». ص٢٠٢.

ويذكر الموفق بن أحمد المكى الحنفى فى كتابه «مناقب الإمام الأعظم» أثر أبى حنيفة فى الفقه بقوله ج١ص١٣٦، ١٣٧: «وأبو حنيفة أول من دون علم الشريعة، ولم يسبقه أحد ممن قبله: لأن الصحابة والتابعين لم يضعوا فى علم الشريعة أبوابا مبوبة ولا

كتباً مرتبة إنما كانوا يعتمدون على قوّة فهمهم وجعلوا قلوبهم صناديقَ علمهم، فنشأ أبو حنيفة بعدهم فرأى العلم منتشرا فخاف عليه الخَلْفَ السّوء أن يضيعوه. ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله ـ تعالى ـ لايقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، وإنما ينتزعه بموت العلماء، فيبقى رؤساء جهّال فيفتون بغير علم، فيضلون ويضلّون» (٢١) فلذلك دونه أبو حنيفة فجعله أبواباً مبوبة، وكتباً مرتبة، فبدأ بالطهارة ثم بالصلاة ثم بسائر العبادات على الولاء، ثم بالمعاملات، ثم ختم بكتاب المواريث.

وإنما ابتدأ بالطهارة ثم بالصلاة لأنّ المكلف بعد صحة الاعتقاد أول مايخاطب بالصلوات، لأنها أخص العبادات وأعم وجوباً، وأخّر المعاملات لأنّ الأصل عدمها وبراءة الذمّة منها. وختمه بالوصايا والمواريث لأنها آخر أحوال الإنسان: فما أحسن ماابتدأ به وختم، ومأحذقه وأفهَمَ وأفقهَ وأمهر وأعلم وأبصَر!

ثم جاء الأئمة من بعده فاقتبسوا من علمه، واقتدوا به، وفرّعوا كتبهم على كتبه. ولهذا روينا بإسناد حسن عن الشافعي – رحمه الله – أنه قال في حديث طويل: «العلماء عيال على أبي حنيفة في الفقه».

---

(١) تخريج

وروى عن ابن سريج - رحمه الله - أنه سمع رجلا يتكلم فى أبى حنيفة، فقال له: ياهذا مَهْ فإن ثلاثة أرباع العلم مسلّمة له بالإجماع، والرابع لايُسلمه لهم.

قال: وكيف ذلك؟ قال: لأن العلم سؤال وجواب، وهو أول من وضع الأسئلة فهذا نصف العلم، ثم أجاب عنها فقال بعض: أصاب، وبعض: أخطأ، فإذا جعلنا صوابه بخطئه صار له نصف النصف الثانى، والربع الرابع ينازعهم فيه ولايسلم لهم... ولأنه - رحمه الله - أول من وضع كتاباً فى الفرائض.، وأول من وضع كتاباً فى الشروط، والشروط لايستطيع أن يضعها إلا من تناهى فى العلم وعرف مذاهب العلماء ومقالاتهم؛ لأن الشروط تتفرع على جميع كتب الفقه ويتحرز بها من كلّ المذاهب لئلاّ ينقضها حاكم بنقضٍ أو فسخ.. وقد قيل بلغت مسائل أبى حنيفة خمسمائة ألف مسألة وكتبه وكتب أصحابه تدل على ذلك».

وجملة القول: أن صاحب مذهب أهل الرأى هو الذى رتب أبواب الفقه، وأكثر من جمع مسائله فى الأبواب المختلفة، وكان الحديث قليلا فى العراق فاستكثروا من القياس ومهروا فيه، فلذلك قيل: «أهل الرأى».

وإنما كان أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق لأن المدينة دار الهجرة، ومأوى الصحابة. ومن انتقل منهم إلى

العراق كان شغلهم بالجهاد وغيره من شئون الدولة أكثر.

ومذهب أهل العراق كان يقصد إلى جعل الفقه وافيا بحاجة الدولة التشريعية، فكان همه أن يجعل الفقه فصولا مرتبه يسهل الرجوع إليها عند القضاء والاستفتاء، وكان همه أن يكثر التفاريع حتى تقوم بما يعرض ويتجدد من الحوادث. لاجرم كان مذهب أهل الرأى مذهب القضاء، وكان أئمته قضاة كأبى يوسف، ومحمد. وكان أهل الحديث يعيبون أهل الرأى بكثرة مسائلهم وقلة روايتهم.

وسئل رقبة بن مصقلة عن أبى حنيفة فقال: «هو أعلم الناس بما لم يكن، وأجهلهم بما قد كان وقد روى هذا القول عن حفص ابن غياث فى أبى حنيفة. يريد أنه لم يكن له علم بآثار من مضى». عن كتاب مختصر جامع بيان العلم.

ويروى ابن عبدالبر فى كتاب «الانتقاء» ص١٤٧ «عن الحكم ابن واقد قال: رأيت أبا حنيفة يفتى من أول النهار إلى أن يعلو النهار، فلما خف عنه الناس دنوت منه فقلت: يا أبا حنيفة، لو أن أبا بكر وعمر فى مجلسنا هذا ثم ورد عليهما ماورد عليك من هذه المسائل المشكلة لكفَّا عن بعض الجواب ووقفا عنه.. فنظر إليه وقال: أمحموم أنت؟ يعنى مبرسما».

أما أهل الحديث - أهل الحجاز - فإمامهم «مالك بن أنس» وكانت طريقة أهل الحجاز فى الأسانيد أعلى من سواهم وأمتن

في الصحة لاشتدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط، وتجافيهم عن قبول «المجهول الحال»، في ذلك.

وكتب «مالك» كتاب «الموطأ» وأودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه.

وفي كتاب (تبييض الصحيفة): أن (مالكا) في ترتيبه للموطأ متابع لأبي حنيفة. ومن العسير إثبات ذلك، فإن أبا حنيفة ومالكا كانا متعاصرين، وإن تأخر الأجل بمالك. وأقدم ما حفظ من المجاميع الفقهية المؤلفة في عصور الفقه الأولى بين السنين هو «موطأ مالك».

ويقول صاحب الفهرست في سرد كتب مالك: «.. وله من الكتب: كتاب الموطأ - كتاب رسالته إلى الرشيد» . ص١٩٩

وكانت وجهة أهل الحجاز كوجهة أهل العراق: تدوين الأحكام الشرعية مبوبة مرتبة، إلا أن اعتماد أهل الحديث على السنة أكثر من اعتمادهم على الرأي، بل هم كانوا يعتبرون الرأي ضرورة لايلجأون إليها إلا على كره وعلى غير اطمئنان.

وقد روى عن مالك: أنه قال في بعض ماكان ينزل فيسأل عنه فيجتهد فيه رأيه:

﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾[1].

مختصر جامع بيان العلم ص١٩٢.

(١) الجاثية ٣٢.

وكان أهل الحديث يكرهون أن يتكاثر الناس بالمسائل كما يتكاثر أهل الدرهم بالدراهم، وكانوا يكرهون السؤال عما لم يكن، قالوا: ألا ترى أنهم كانوا يكرهون الجواب فى مسائل الأحكام مالم تنزل، فكيف . بوضع الاستحسان والظن والتكلف وتسطير ذلك واتخاذه دينا!

وفى «الانتقاء» : «قال الهيثم بن جميل: شهدت مالك بن أنس سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال فى اثنتين وثلاثين منها: لاأدرى».

ولم يكن أهل الحديث مع ذلك ينكرون اجتهاد الرأى. والقياس على الأصول فى النازلة تنزل عند عدم النصوص.

الشافعى بين أهل الرأى وأهل الحديث

ظهر الشافعى والأمر على ماوصفنا، من نهضة الدراسة الفقهية فى بلاد الإسلام نهضة ترمى إلى الوفاء بالحاجة العملية فى دولة تريد أن تجعل أحكام الشرع دستوراً لها. ومن انقسام الفقهاء إلى أهل رأى يعتمدون فى نهضتهم على سرعة أفهامهم، ونفاذ عقولهم، وقوتهم فى الجدل؛ وأهل حديث يعتمدون على السنن والآثار، ولايأخذون من الرأى إلا بما تدعو إليه الضرورة.

كان أهل الرأى يعيبون أصحاب الحديث بالإكثار من الروايات، الذى هو مظنة لقلة التدبر والتفهم. «حكى عن أبى يوسف قال: سألنى الأعمش عن مسألة وأنا وهو لاغير، فاجبته، فقال لى: من أين قلت هذا يايعقوب؟ فقلت: بالحديث الذى حدثتنى أنت. فقال: يايعقوب إنى لأحفظ هذا الحديث من قبل ان يجتمع أبواك، ماعرفت تأويله إلى الآن» مختصر جامع بيان العلم ص١٨٢.

فأصحاب الحديث كانوا حافظين لأخبار رسول الله، إلا أنهم كانوا عاجزين عن النظر والجدل، وكلما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأى سؤالا أو إشكالا سُقِط فى أيديهم متحيرين. الرازى ص٣٨.

هم ضعاف فى الاستنباط وفى القدرة على دفع المطاعن والشبهات عن الحديث.

وكان أهل الحديث يعيبون أهل الرأى بأنهم يأخذون فى دينهم بالظن، وأنهم ليسوا للسنة أنصارا ولا هم فيها بمتثبتين؛ فإن أصحاب أبى حنيفة يقدمون القياس الجلى على خبر الواحد، وهم يقبلون المراسيل، والمجاهيل، أى الحديث المرسل الذى أسنده التابعى أو تابع التابعى إلى النبى صلى الله عليه وسلم من غير أن يذكر الصحابى الذى روى الحديث، أما المجاهيل فهم مجهولو الحال من الرواة.

ثم لايقبلون الحديث الصحيح إذا كان مخالفا للقياس، ولايقبلونه فى الواقعة التى تعم فيها البلوى. الرازى ص٢٥٠ ، ٢٥١.

كانت الحال على ماذكرنا حين جاء الشافعى، وقد تفقه الشافعى أول ماتفقه على أهل الحديث من علماء مكة، كمسلم ابن خالد الزنجى، وسفيان بن عيينة، ثم ذهب إلى إمام أهل الحديث «مالك بن أنس» فى المدينة فلزمه. ولقى من عطفه ومن فضله ماجعله يحبه ويجله. «عن يونس بن عبدالأعلى أنه سمع الشافعى يقول: «إذا ذكر العلماء فمالك النجم، ومأحد أَمَنُّ علىَّ من مالك بن أنس». الانتقاء ص٢٣.

على أن نشأة الشافعى لم تكن من كل وجه نشأة أهل

الحديث، ولا استعداده استعدادهم.

لقد توجه فى أول أمره إلى درس اللغة والشعر والأدب وأخبار الناس، ولم يقطع صلته بهذه العلوم حين وصل حبله بأهل الحديث الذين كانوا لايرونها من العلم النافع. «حُكى عن مصعب الزُبيرى قال: كان أبى والشافعى يتناشدان، فأتى الشافعى على شعر هذيل حفظًا وقال: لاتُعْلِم بهذا أحداً من أهل الحديث فإنهم لايحتملون هذا» معجم الأدباء ج٦ص٣٨٠.

وكان الشافعى بطبعه نهما فى العلم، يلتمس كل مايجده من فنونه، وقد ذكر من ترجموا له: أنه اشتغل بالفراسة حين ذهب إلى اليمن، وعالج التنجيم والطب، وربما كان درسهما فى إحدى رحلاته إلى العراق، حيث كان التنجيم يعتبر فرعاً من فروع العلوم الرياضية، وكان الطب فرعا من العلم الطبيعى. والعلم الرياضى والعلم الطبيعى قسمان من أقسام الفلسفة التى كان مسلمو العراق أخذوا يتنسمون ريحها، وكان الشافعى مغرى بالرمى فى شبابه ولم يكن فى كهولته يأنف من الوقوف عند مهرة الرماة يدعو لهم ويمدهم بالمال، ويظهر: أنه لم يكن شديدا فى جرح الرجال كعادة أهل الحديث وقد نقل صاحب كتاب «طبقات الشافعية الكبرى» حكاية تدل على سخرية الشافعى من تزمت المزكِّين..

«قال الشافعي - رضى الله عنه - حضرت بمصر رجلا مزكّياً يُجَرِّح رجلا، فسئل عن سببه وألح عليه فقال: رأيته يبول قائماً، قيل وما فى ذلك؟ قال: يرد الريح من رشاشه على بدنه وثيابه فيصلِّى فيه. قيل: هل رأيته أصابه الرشاش وصلي قبل أن يغسل ما أصابه؟ قال: لا، ولكن أراه سيفعل». ج١ ص١٩٤، ١٩٥.

وكان فى العلماء المعاصرين للشافعى، بل أهل الرأي منهم، بل أهل الحديث، من لا يراه ممعنا في الحديث.

«عن أبي عبد الله الصاغاني يحدث عن يحيي بن أكثم قال: كناّ عند محمد بن الحسن في المناظرة، وكان الشافعي رجلا قرشى العقل والفهم، صافى الذهن، سريع الإصابة، ولو كان أكثر سماع الحديث لاستغنت أمة محمد به عن غيره من العلماء». ابن حجر ص٥٩.

ولما ذهب الشافعي إلي العراق استرعي نظره تحامل أهل الرأي علي أستاذه مالك وعلي مذهبه، وكان أهل الرأي أقوي سنداً وأعظم جاهاً بما لهم من المكانة عند الخلفاء، وبتولِّيهم شؤون القضاء، ذلك إلي أنهم أوسع حيلة في الجدل من أهل الحديث وأنفذ بياناً. ويمثل حال الفريقين من هذه الناحية، ما روي عن إمامَيْ أهل الرأي وأهل الحديث: أبي حنيفة ومالك.

روي ابن عبد البر المالكي عن الطبري قال: وكان مالك قد ضرب بالسياط، واختلف فيمن ضربه وفي السبب الذي ضرب

فيه. قال: فحدثني العباس بن الوليد قال: خبرنا ذكوان عن مروان الطاطري، أن أبا جعفر نهي مالكا عن الحديث: «ليس علي مستكْرِه طلاق»، ثم دسّ إليه من يسأله عنه، فحدث به على رؤوس الناس. الانتقاء ص٤٣ . ٤٤.

أما أبو حنيفة فينقل في شأنه الموفق المكي في كتاب «المناقب»: «عن معمر بن الحسن الهروي يقول: اجتمع أبو حنيفة ومحمد بن إسحاق عند أبي جعفر المنصور، وكان جمع العلماء والفقهاء، من أهل الكوفة والمدينة وسائر الأمصار، لأمرٍ حزَبَه، وبعث إلي أبي حنيفة فنقله علي البريد إلي بغداد، فلم يخرجه من ذلك الأمر الذي وقع له إلاّ أبو حنيفة، فلما قضيت الحاجة علي يديه حبسه عند نفسه ليرفع القضاة والحكام الأمور إليه، فيكون هو الذي ينفذ الأمور ويفصل الأحكام، وحبس محمد بن إسحاق ليجمع لابنه المهدي حروب النبي صلي الله عليه وسلم وغزواته. قال فاجتمعا يوماً عنده، وكان محمد بن إسحاق يحسده لما كان يري من المنصور من تفضيله وتقديمه واستشارته فيما ينوبه وينوب رعيته وقضاته وحكامه، وسأل أبا حنيفة عن مسألة أراد بها أن يغيِّر المنصور عليه، فقال له: ما تقول يا أبا حنيفة في رجلٍ حلف ألا يفعل كذا وكذا، أو أن يفعل كذا وكذا، ولم يقل إن شاء الله، موصولا باليمين، وقال ذلك بعد ما فرغ من يمينه وسكت؟ فقال أبو حنيفة: لاينفعه الاستثناء إذا كان مقطوعاً من اليمين، وإنما كان ينفعه إذا كان

موصولا به. فقال: وكيف لا ينفعه وقد قال جدُّ أمير المؤمنين الأكبر أبو العباس عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أن استثناءه جائز، ولو كان بعد سنة، واحتجَّ بقوله عزّوجل:

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾(١).

فقال المنصور لمحمد بن إسحاق: أهكذا قال أبو العباس صلوات الله عليه؟ قال نعم! فالتفت إلى أبي حنيفة - رحمه الله - وقد علاه الغضب، فقال أتُخالف أبا العباس؟ فقال أبو حنيفة: لم أخالف أبا العباس، ولقول أبي العباس عندي تأويلٌ يخرج على الصحة، ولكنْ بلغني أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من حلَفَ على يمين واستثنى فلا حنْث عليه». وإنما وضعناه إذا كان موصولا باليمين، وهؤلاء لا يرون خلافتك، لهذا يحتجون بخبر أبي العباس، فقال له المنصور كيف ذلك؟ قال: لأنهم يقولون إنهم بايعوك حيث بايعوك تَقِيّة، وإن لهم الثُّنْيا متى شاءوا، يخرجون من بيعتك ولا يبقى في أعناقهم من ذلك شيء. قال: هكذا؟ قال: نعم. فقال المنصور: خذوا هذا، يعني محمد بن إسحاق فأُخِذ وجعل رداؤه في عنقه وحبسوه».ج١ص١٤٢ - ١٤٤.

(١) الكهف (٢٤)

كان طبيعيا أن يجادل الشافعي عن أستاذه وعن مذهب أستاذه، وقد نهض الشافعي قوياً بعقله، قوياً بعلمه، قوياً بفصاحته، قوياً بشباب في عنفوانه، وحمية عربية. وقد رويت لنا نماذج من دفاع الشافعي عن مالك ومذهبه: عن محمد بن الحكم قال: سمعت الشافعي يقول: قال لي محمد بن الحسن: صاحبُنا أعلمُ من صاحبكم، يعني «أبا حنيفة ومالكا»، وما كان علي صاحبكم أن يتكلّم، وما كان لصاحبنا أن يسكت. قال: فغضبت وقلت: نشَدتك الله من كان أعلمَ بسنة رسول الله صلي الله عليه وسلم، مالك أو أبو حنيفة؟ قال: مالك، لكن صاحبنا أقْيَس. فقلت: نعم ومالكٌ أعلم بكتاب الله - تعالي - وناسخه ومنسوخه وسنة رسول الله صلي الله عليه وسلم من أبي حنيفة. فمن كان أعلم بكتاب الله وسنة رسوله كان أولي بالكلام». الانتقاء ص٢٤.

كان هذا الحجَاج عن مذهب مالك، في قدوم الشافعي إلي العراق أول مرة. وأقام الشافعي في العراق زمناً غير قصير، ودرس فيه كتب محمد بن الحسن وغيره من أهل الرأي فيما درس في العراق، ولازم محمد بن الحسن، وردَّ علي بعض أقواله وآرائه نصيراً لأهل الحديث.

ولا شك أن الشافعي في ذلك العهد كان متأثِّراً بمذهب أهل الحديث، ومتأثراً بملازمة عالمٍ دار الهجرة، فهو كان يدافع عن

مذهبه بدافع حميّته لأستاذه وأنصار أستاذه المستضعَفين.

أما ابن البزّاز الكَرْدَريّ فهو يروي في سبب اختلاف الشافعي علي محمد بن ا لحسن روايات يقول فيها:

«عن عبد الرحمن الشافعي: لم يعرف الشافعي لمحمد حقه، وأحسن إليه فلم يف له. وعن إسماعيل المزني، قال الإمام الشافعي: حُبِست بالعراق لدَين فسمع محمدٌ بي فخلصني، فأنا له شاكر من بين الجميع وعن ابن سماعة قال: أفلس الشافعي غير مرّة فجاء إلي محمد فحدّث أصحابه فجمع له مائة ألف، فكان فيه قضاء حاجته، ثم أفلس مرة أخري فجمع له سبعين ألف درهم، ثم أتاه الثالثة، فقال: لا أُذهب مروءتي من بين أصحابي، لو كان فيك خيرٌ لكفاك ما جمعتُ لك ولعقبك. وكان قبل هذا مولعاً بكتبه يناظر أوساط أصحابه ويعدُّ نفسه منهم، فلما أتي محمداً الثالثةَ أظهر الخلاف».المناقب ج٢ – ص١٥٠، ١٥١.

والشافعي نفسه يردّ علي ذلك، فقد أخرج الحاكم من طريق محفوظ ابن أبي توبة قال سمعت الشافعي يقول: يقولون إني إنما أخالفهم للدنيا، وكيف يكون ذلك والدنيا معهم؟ وإنما يريد الإنسان الدنيا لبطنه وفرجه؟ وقد منعت ما ألَذُّ من المطاعم، ولا سبيل إلي النكاح – يعني لما كان به من البواسير – ولكن لست أخالف إلاّ من خالف سنة رسول الله.. ابن حجر ص٧٦

آثاره وكتبه

ولما عـاد الشـافـعي إلي بغـداد في سنة ١٩٥هـ - ٨١٠ - ٨١١م ليقيم فيهـا سنتين اشـتغل بالتدريس والتأليف. وروى البغدادي في «كتاب تاريخ بغداد»:

«عن أبي الفضل الزجاج يقول: لما قدم الشافعي إلي بغداد وكان في الجامع إما نيّف وأربعون حلقة، أو خمسون حلقة. فلما دخل بغداد مازال يعقد في حلقة حلقة ويقول لهم: قال الله وقال الرسول، وهم يقولون: قال أصحابنا. حتّى ما بقي في المسجد حلقة غيره». ص٦٨، ٦٩.

واختلف إلي دروس الشافعي جماعة من كبار أهل الرأي كأحمد بن حنبل وأبي ثور، فانتقلوا عن مذهب أهل الرأى إلي مـذهبه. ويروي عن أحـمد بن حنبل أنه قـال: «مـا أحـد من أصحاب الحديث حمل محبرة إلاّ وللشافعي عليه منّة». فقلنا: يا أبا محمد كيف ذلك؟ قال: إن أصحاب الرأى كانوا يهزؤون بأصحاب الحديث حتى علّمهم الشافعى وأقام الحجة عليهم». الانتقاء ص٧٦.

ووضع الشافعي في بغداد كتاب «الحجة». «روي ابن حجر عن البويطي أن الشافعي قال: اجتمع عليَّ أصحاب الحديث

فسألوني أن أضع علي كتاب أبي حنيفة، فقلت: لا أعرف قولهم حتي أنظر فى كتبهم. فأمرتُ فكُتِبَ لِي كُتُب محمد بن الحسن، فنظرت فيها سنة حتي حفظتها، ثم وضعت الكتاب البغدادي، يعني «الحجة».. ص٧٦

ويظهر من ذلك: أن مذهب الشافعي القديم الذي وضعه في بغداد كان في جل أمره ردًا علي مذهب أهل الرأي، وكان قريباً إلي مذهب أهل الحديث.

وروي البغدادي عن حرملة: أنه سمع الشافعي يقول: «سُمِيت ببغداد ناصر الحديث».ج٢ ص٦٨.

ونقل ابن حجر عن البيهقي: أن كتاب «الحجة» الذي صنفه الشافعي ببغداد حمله عنه الزعفراني، وله كتب أخري حملها غير الزعفراني، منها: كتاب «السير»، رواية أبي عبد الرحمن أحمد بن يحيي الشافعي».

وفي كتاب كشف الظنون:

«الحجة، للإمام الشافعي، وهو مجلد ضخم ألّفه بالعراق، إذا أطلق القديم من مذهبه يراد به هذا التصنيف، قاله الأسنويّ في المبهمات. ويطلق علي ما أفتي به هناك أيضاً».

ثم انتهي الشافعي إلي مصر فآزره تلاميذ مالك، حتي إذا وضع مذهبه الجديد وأخذ يؤلِّف الكتب ردًا علي مالك تنكّروا له وأصابته منهم محن.

«قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: قدمت مصر لا أعرف أن مالكا يخالف من أحاديثه إلأستة عشر حديثاً، فنظرت فإذا هو يقول بالأصل ويدع الفرع، ويقول بالفرع ويدع الأصل.

ثم ذكر الشافعي في رده علي مالك، المسائل التي ترك الأخبار الصحيحة فيها بقول واحد من الصحابة أو بقول واحد من التابعين، أو لرأي نفسه

ثم ذكر ما ترك فيه أقاويل الصحابة لرأي بعض التابعين أو لرأي نفسه وذلك أنه ربما يدعي الإجماع، وهو مختلف فيه.

ثم بين الشافعي أن ادعاء أن إجماع أهل المدينة حجة، قول ضعيف». الرازي ص٢٦.

ويروي بعض الرواة: أنّ الشافعي إنما وضع الكتب علي مالك لأنّه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يستسقي بها، وكان يقال لهم: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم، فيقولون: قال مالك، فقال الشافعي: إن مالكاً بشر يخطيء. فدعاه ذلك إلي تصنيف الكتاب في اختلافه معه. وكان يقول: استخرت الله - تعالي - في ذلك. ابن حجر ص٧٦.

ومذهب الشافعي الجديد الذي وضعه في مصر هو الذي يدل علي شخصيته وينم عن عبقريته، ويبرز استقلاله.

«سئل أحمد: ما ترى فى كتب الشافعى التى عند العراقيين أهى أحب إليك، أم التي بمصر؟ قال: عليك بالكتب التي وضعها

بمصر فإنَّه وضع هذه الكتب بالعراق لم يُحكمها، ثم رجع إلي مصر فأحْكَمَ تلك، كما يرويه الذهبي في تاريخه الكبير». هامش الانتقاء ص٧٧.

ومذهب الشافعي الجديد وصل إلينا فيما ألفه بمصر من الكتب. وقد سرد البيهقي المتوفي سنة ٤٥٨هـ – ١٠٦٥ – ١٠٦٦م كتب الشافعي ولخصها عنه ابن حجر في ص٧٨:

(الرسالة القديمة، ثم الجديدة – اختلاف الحديث، جماع العلم – إبطال الاستحسان – أحكام القرآن – بيان الفرض – صفة الأمر والنهي – اختلاف مالك والشافعي – اختلاف العراقيين – اختلافه مع محمد بن الحسن – كتاب علي وعبد الله – فضائل قريش – كتاب الأم .

وعدة كتاب الأم: مائة ونيف وأربعون كتابا. وحمل عنه حرملة كتابا كبيراً يسمي «كتاب السنن»، وحمل عنه المزني كتابه «المبسوط» وهو المختصر الكبير، والمنثورات، وكذا المختصر المشهور، قال البيهقي: وبعض كتبه الجديدة لم يُعد تصنيفَها، وهي: الصيام – والصداق – والحدود – والرهن الصغير – والإجارة – والجنائز – فإنَّه أمر بقراءة هذه الكتب عليه في الجديد وأمر بتحريق ما يغاير اجتهاده. قال: وربما تركه اكتفاء بما نبه عليه من رجوعه عنه في مواضع أخري.

قلت: وهذه الحكاية مفيدة ترفع كثيراً من الإشكال الواقع بسبب مسائل اشتهر عن الشافعي الرجوع عنها وهي موجودة في بعض هذه الكتب.

ثم نقل ابن حجر: أن لأصحاب الشافعي من أهل الحجاز والعراق عنه مسائل وزيادات. قال: وهذا يدل على أنَّ «كتباً أخرى حملها عنه هؤلاء؛ لأن هذه المسائل ليست في الكتب المقدم ذكرها».

وقد ترك ابن حجر في تلخيصه: كتاب «مسند الشافعي» ولا ندري: إن كان البيهقي قد تركه أيضاً أم لا؟ ويقول الرازي: «إن كتابه المسمي بمسند الشافعي كتاب مشهور في الدنيا». ص١٤٦.

كان اتجاه المذاهب الفقهية قبل الشافعي إلي جمع المسائل وترتيبها وردها إلي أدلتها التفصيلية عندما تكون دلائلها نصوصا.

وأهل الحديث لكثرة اعتمادهم علي النص كانوا أكثر تعرُّضاً لذكر الدلائل من أهل الرأى. فلما جاء الشافعي بمذهبه الجديد كان قد درس المذهبين، ولاحظ ما فيهما من نقص بدا له أن يكمله، وأخذ ينقض بعض التفريعات من ناحية خروجها عن متابعة نظام متحد في طريقة الاستنباط.

وذلك يشعر باتجاهه في الفقه اتجاهاً جديداً هو اتجاه العقل العلمي الذي لا يعني بالجزئيات والفروع.

ويدل على أن اتجاه الشافعي لم يكن إلي تمحيص الفروع: ما نقله ابن عبد البر في «الانتقاء» من: أن أحمد بن حنبل قال: «قال الشافعي لنا: أما أنتم فأعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحاً فأعلموني أن يكون كوفيا، أو بصريا أو شاميا، أذهب إليه إذا كان صحيحا». ص٧٥.

وطريقة علاجه لمسائل العلم تدلُّ علي منهجه، قال أبو محمد بن أخت الشافعي عن أمه قالت: ربما قدَّمنا في ليلة واحدة ثلاثين مرة أو أقل أو أكثر المصباح بين يدي الشافعي، وكان يستلقي ويتذكَّر ثم ينادي: يا جارية، هلمي مصباحا. فتقدِّمه ويكتب ما يكتب، ثم يقول: ارفعيه. فقيل لأحمد: ما أراد بردِّ المصباح؟ قال: الظُّلمة أجلي للقلب. مفتاح السعادة ج٢ ص٩١.

وليس هذا النوع من التفكير الهادىء في ظلمة الليل تفكير من يهتم بالمسائل الجزئية والتفاريع، بل هو تفكير من يعني بضبط الاستدلالات التفصيلية بأصول تجمعها، وذلك: هو النظر الفلسفي.

قال ابن سينا في الشفاء: «إنا لا نشتغل بالنظر في الجزئيات لكونها لا تتناهى، وأحوالها لا تثبت. وليس علمنا بها

من حيث هي جزئية تفيدنا كمالا حكميا أو تبلغنا غاية حكمية، بل الذي يهمنا هو النظر في الكليات».

وكان أحمد يقول: الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء: في اللغة -واختلاف الناس - والمعاني - والفقه. (الرازي ص٣٥).

وقد حاول الشافعي: أن يجمع أصول الاستنباط الفقهي وقواعدها علما ممتازا، وأن يجعل الفقه تطبيقا لقواعد هذا العلم.

وبهذا يمتاز مذهب الشافعي من مذهب أهل العراق وأهل الحجاز.

وضع الشافعي لعلم أصول الفقه

إذا كان الشافعي هو أول من وجّه الدراسات الفقهية إلي ناحية علمية فهو أيضا: أول من وضع مصنفا في العلوم الدينية الإسلامية علي منهج علميّ، بتصنيفه في أصول الفقه. قال الرازي: اتفق الناس علي أن أول من صنف في هذا العلم -أي علم أصول الفقه - الشافعي، وهو الذي رتب أبوابه وميز بعض أقسامه من بعض، وشرح مراتبها في القوة والضعف.

وروي: أن عبد الرحمن بن مهدي، التمس من الشافعي وهو شاب أن يضع له كتاباً يذكر فيه: شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة، والإجماع، والقياس، وبيان الناسخ والمنسوخ، ومراتب العموم والخصوص، فوضع الشافعي - رضي الله عنه «الرسالة» وبعثها إليه، فلما قرأها عبد الرحمن بن مهدي قال: ماأظن أن الله عز وجل - خلق مثل هذا الرجل.

ثم قال الرازي: واعلم: أن نسبة الشافعي إلي علم الأصول كنسبة «أرسطاليس» إلي علم «المنطق»، وكنسبة «الخليل بن أحمد» إلي علم «العروض».

وذلك لأن الناس كانوا قبل «أرسطاليس» يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة، لكن ما كان عندهم قانون مخلص في كيفية ترتيب الحدود والبراهين، فلا جرم، كانت كلماتهم مشوشة ومضطربة؛ فإن مجرد الطبع إذا لم يستعن بالقانون الكلي، قلما يفلح.

فلما رأي «أرسطاليس» ذلك اعتزل عن الناس مدة مديدة واستخرج علم «المنطق»، ووضع للخلق بسببه قانونا كليا يرجع إليه في معرفة الحدود والبراهين.

وكذلك الشعراء كانوا قبل «الخليل بن أحمد» ينظمون أشعارا، وكان اعتمادهم على مجرد الطبع، فاستخرج «الخليل» علم «العروض» فكان ذلك «قانونا» كليا في معرفة مصالح الشعر ومفاسده. فكذلك هنا الناس كانوا قبل الإمام الشافعي يتكلمون في مسائل «أصول الفقه» ويستدلون، ويعترضون ولكن ما كان لهم قانون كلي مرجوع إليه في معرفة دلائل الشريعة وفي كيفية معارضتها، وترجيحاتها، فاستنبط الشافعي علم «أصول الفقه» ووضع للخلق قانونا كليا يرجع إليه في معرفة مراتب أدلة الشرع.. ثم يقول الرازي: واعلم أنَّ الشافعي صنف كتاب «الرسالة» ببغداد، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب

«الرسالة»، وفي كل واحد منهما علم كثير. ص٩٨ - ١٠٢.

ويقول «بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي» المتوفي سنة ٧٩٤ هـ ١٣٩١ - ١٣٩٢م في كتابه في أصول الفقه، المسمي بالبحر المحيط: «فصل»: الشافعي أول من صنف في أصول الفقه، صنف فيه كتاب الرسالة، وكتاب أحكام القرآن، واختلاف الحديث، وإبطال الاستحسان، وكتاب جماع العلم، وكتاب القياس، الذي ذكر فيه؛ تضليل المعتزلة ورجوعه عن قبول شهادتهم.

ثم تبعه المصنفون في علم الأصول. قال أحمد بن حنبل: «لم نكن نعرف الخصوص والعموم حتي ورد الشافعي».

وقال الجويني في شرح الرسالة. لم يسبق الشافعي أحد في تصانيف «الأصول» ومعرفتها، وقد حكي عن ابن عباس «تخصيص عموم» وعن بعضهم «القول بالمفهوم»، ومن بعدهم لم يقل في الأصول شيء ولم يكن لهم فيه قدم: فإنا رأينا كتب السلف من التابعين وتابعي التابعين وغيرهم فما رأيناهم صنفوا فيه. من نسخة خطية بالمكتبة الأهلية بباريس.

ويقول ابن خلدون في المقدمة: «وكان أول من كتب فيه - أى فى علم أصول الفقه - الشافعى - رضى الله عنه - أملي فيه

رسالته المشهورة تكلم فيها في: الأوامر والنواهي، والبيان، والخبر، والنسخ، وحكم العلة المنصوصة، من القياس، ثم كتب فقهاء الحنفية فيه، وحقَّقوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها، وكتب المتكلمون أيضاً. ص٣٩٧.

وفي كتاب «طبقات الفقهاء» للقاضي شمس الدين العثماني الصفدي: «وابتكر الشافعي ما لم يسبق إليه، ومن ذلك: أصول الفقه؛ فإنه أول من صنف أصول الفقه بلا خلاف، ومن ذلك: كتاب القسامة، وكتاب الجزية، وكتاب قتال أهل البغي». من نسخة خطية بدار الكتب الأهلية بباريس.

ويقول صاحب كتاب «كشف الظنون»: وأول من صنف فيه الإمام الشافعي» ذكره الأسنوي في التمهيد، وحكي الإجماع فيه. ص٣٣٤.

والباحثون في هذا الشأن من الغربيين يرون في الشافعي: واضعاً «لأصول الفقه». يقول «جولد زيهر» في مقالته في كلمة «فقه» في دائرة المعارف الإسلامية: «أظهر مزايا محمد بن إدريس الشافعي أنه وضع نظام الاستنباط الشرعي من أصول الفقه، وحدد مجال كل أصل من هذه الأصول. وقد ابتدع في (رسالته) نظاماً للقياس العقلي الذي ينبغي الرجوع إليه في

التشريع، من غير إخلال بما للكتاب والسنة من الشأن المقدم، ورتَّب الاستنباط من هذه الأصول، ووضع القواعد لاستعمالها بعد ما كان جزافاً»

علي أنا نجد في كتاب الفهرست في ترجمة (محمد بن الحسن) ذكر كتاب له يسمي «كتاب أصول الفقه».

ويقول الموفق المكي في كتابه: «مناقب الإمام الأعظم» نقلا عن طلحة بن محمد بن جعفر؛ أن أبا يوسف أول من وضع الكتب في «أصول الفقه» علي مذهب أبي حنيفة. ج٢ص٢٤٥.

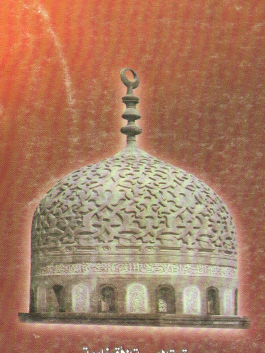
ونقل ذلك طاش كبري زاده في كتابه «مفتاح السعادة» ج٢ص١٠٢ ولم يرد كتاب في هذا العلم، فيما أورده صاحب «الفهرست»، لأبي يوسف من الكتب وإذا صح أنّ لأبي يوسف أو لمحمد كتاباً في أصول الفقه فهو فيما يظهر كتاب لنصرة ما كان يأخذ به أبو حنيفة ويعيبه أهل الحديث من الاستحسان.

وقد يؤيد ذلك، أن صاحب «الفهرست» ذكر في أسماء كتب أبي يوسف «كتاب الجوامع» ألفه ليحيي بن خالد، يحتوي علي أربعين كتاباً، ذكر فيه اختلاف الناس والرأي المأخوذ به. ولم يكن في طبيعة مذهب أهل الرأي الذين كان من همهم أن يجمعوا المسائل ويستكثروا منها – النزوع إلي تقييد الاستنباط بقواعد

لا تتركه متسعا رحبا. علي أن القول بأن أبا يوسف هو أول من تكلم في (أصول الفقه) علي مذهب أبي حنيفة لا يعارض القول بأن الشافعي هو الذي وضع (أصول الفقه) علماً ذا قواعد عامة يرجع إليها كل مستنبط لحكم شرعي.

وقد لا يكون بعيدا عن غرض «الشافعي» في وضع «أصول الفقه»: أن يقرب الشقة بين أهل الرأي وأهل الحديث، ويمهِّد للوحدة التي دعا إليها الإسلام.

الفهرس



قبة المدرسة الأقبغاوية
بالجامع الأزهر

المتن ٧٠ جم مستورد
الغلاف ١٥٠ جم كوشيه

شركة الإعلانات الشرقية دار الجمهورية للصحافة